

حَارة النَصارى

شَمعِي أسْعَد

دَارْ دَوِّنْ

حـــارة
النصارى

الطبعة الأولى يناير 2010
الطبعة الثانية أغسطس 2010
الطبعة الثالثة أبريل 2013
رقم الإيداع: 2009/23582
الترقيم الدولي: 1-09-6337-977-978
تصميم الغلاف: أحمد مراد
تصحيح لغوي: أحمد سعيد

١٨ شارع محي الدين أبو العز - الدقي
تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

حارة النصارى

قبلَ أن ينكمشَ الأقباطُ ويصبحَ كلُّ ما لهُم في هذا الوطنِ حارة!!

شمعي أسعد



دار دوّن للنشر والتوزيع [illegible]

شيءٌ في قلبي يحترقُ

إذ يمضي الوقتَ

فنفترقَ

ونمدُّ الأيدي

يجمعُها حبٌ

وتفرّقها طرقٌ

أمل دنقل

إهـــداء

كتابي هذا الذي انتظرته كما يليقُ بوليد قادم، أهديه إلى:

أسعَد فَهمي:

والدي الذي قال لي ذات يوم: "ابحث دائمًا عن محور ارتكاز"، واكتشفتُ بعد رحيله أنني فقدتُ أهمَّ محور ارتكاز في حياتي.

شريف شُكري:

صديقي الذي علَّمني كيف أفكِّر، وكيف أهتمُّ بالشَّأن العام، غير مُكتفٍ بشئوني الخاصَّة.

صابرين فَخري:

يقول سُليمانُ الحكيم: (امْرَأَةٌ فَاضِلَةٌ مَنْ يَجِدُهَا؟ لأن ثَمَنَهَا يَفُوقُ اللآلِئَ) وها أنا أهتفُ: وجدتها...

شُكـــرٌ

أشكرُ أصحاب الفِكرة وناشريها:

أحمد مهنَّى

أحمد البُوهي

مُصطفى الحُسيني

مُحمَّد مُفيد

وأشكرُ لَهُم اهتمامَهُم وشجاعتهم بنشر كتاب يتعرَّضُ لقضايا حسَّاسة وخلافيَّة.

أشكرُ هؤلاءِ الذين أرهقتُهم معي على مدار شهور طويلة، وكانت حواراتنا معًا بمثابة مَعْمَل تفريغ أفكار كثيرة:

هشام علاء: صاحب مُدَوَّنة "كلام هشام"، وربما لولا حواراتنا معًا ومساعدته لِي -بكتابته أغلب الأسئلة التي تدورُ في ذِهن كثيرٍ من المُسلِمين عن الأقباط وحياتهم- لَمَا ظهر الكتابُ للنُّور.

مُحمَّد الغزالي: القاص وصاحب مُدَوَّنة "الغزالي"، كم كُنتُ مُحتاجًا -أثناء الكتابة- أن أُقَيِّمَ ما أكتبُ من خلال صديق مُسلِم بروعة الغزالي!

إيهاب فايز: صاحب مُدَوَّنة "ألف باء"، وكان يمثِّل وجهة النَّظر القِبطيَّة التي كنتُ أحتاجُها أيضًا: حتَّى لا أقع في فخِّ الرَّأي الأُحاديِّ، وكم أفادتني مُلاحظاته كثيرًا!

إيليا سمير: صديق العُمُر، الفنَّان والأديب المغمور، وقد أعانني باختياره لاسم الكتاب.

شكرٌ خاصٌّ للكاتب المسرحيّ المهندس جهاد ميخائيل الذي أرهقتُه جدًّا في مُراجعة الكتاب، وكانت له -وهو مُفَكِّرٌ شديدُ الرُّقِيّ- مُلاحظات قيِّمَة جدًّا أفادت الكتابَ كثيرًا.

وهناك آخرون، ولكنَّهُم فضَّلوا عدم ذكر أسمائهم.

مُقدّمـة النّاشِـر

حوارٌ طويلٌ معَ العقل والقلب ستقرأه وتُعايشه عبر صفحات هذا الكتاب، الذي بدأ بنقاش وُدّيٍّ معَ أحدِ أصدقائنا المَسيحيّين، حول جدوى أن يظلّ خطابُ شركاء الوطن أحاديَّ الاتجاه، إلى الحدّ الذي يفقدُ معَه قدرتَه على جذب انتباه جماهير الطَّرف الآخر، وهو ما يعني إلغاء فَهْم كلّ طرف لاحتياجات وتطلُّعات الطَّرف الآخر. كان الرَّدُّ هادئًا بليغًا عن دورنا نحنُ "النّاشرين المُثقَّفين" في إيصال صوت المعرفة إلى آذان الطَّرف الآخر. وهو ما أدّى إلى تكليف مَن نثقُ بقدرته على إدارة حوار جادٍّ يسعى إلى إقامة جسور راسخة تسمحُ للمعرفة بالمرور عليها، بينَ شُركاء الوطن، وفي كلا الاتجاهين.

شمعي أسعد، قد تكون لَم تسمع باسم هذا الكاتب مِن قبلُ، لكن ثِق بأننا، ونحنُ أصحاب الدّار "المُسلمون" وجدناه خيرَ شخص لنكلّفه بِمُهمّة ثقيلة - نَوعاً ما- وهي تعريفنا بمواقف من حياة شابٍّ مِصريّ "مَسيحي" الدِّيانة، يمثّل تِلكَ الشَّريحةَ القِبطيّةَ من المُجتَمَع المِصريّ، بلا تهوين أو تهويل من جانبه، لذا فإنك تجده يقدّمُ لنا الحقيقة كاملةً من وجهة نظره، ويكفيه أنه لم يستغل فرصة تأليف ذلِكَ الكتاب في تلميع نفسه، أو ترويج أفكاره، أو حتّى التَّبشير بديانته.

إنه شخصٌ مُحَايدٌ، يوضِّحُ ما يعتقده، ويشرحُ ما يؤمنُ به، ويحكي عمَّا خاضه دون تزييف أو تجريح، وهو ما يجعلنا نشهد له بالقدرة على تقديم جرعة معرفيَّة صادقة عن أحوال مَسيحيّي مِصر، كيف يفكِّرون، كيف يعيشون، بل حتّى كيف ينظرون للمُسلمين الذين يشاركونَهُم هذا الوطن الكبير.

في النّهاية، هذا الكتاب هو وجبةٌ ثقافيَّةٌ ومعرفيَّةٌ مُمتِعَةٌ، نرجو أن يقدِّم لكَ إجاباتٍ عن الكثير من الأسئلة التي تدور بذهنك، حولَ حياة مَسيحيِّي مِصر.

النَّاشِر

مقدمة الطبعة الثالثة

صدرت الطبعة الأولى والثانية لهذا الكتاب عام ٢٠١٠ قبل ثورة ٢٥ يناير 2011 حيث كان الوضع العام في مصر في احتياج لهذا النوع من الكتابات أو المبادرات، ثمّ صدرت الطبعة الثالثة بعد ثورة يناير؛ حيث صار الوضع العام في مصر أكثر احتياجاً له.

مُقدِّماتٌ كثيرةٌ لكتابٍ صغير

عزيزي المُسلِم:

إذا كانوا قد قالوا لكَ أن "المَسيحيّين ريحتهم وحشة" حتَّى أقنعوك، وإذا كان أحدهُم قد أخبرك بيقين أن الأديرة تعجُّ بالأسود والنُّمور لتأديب المُرتدّين عن المَسيحيَّة وصدَّقتَ أنتَ ذَلِكَ، وإذا كانوا قد ردَّدوا كثيرًا على مسامعك أن الكنائس لم تعد كنائس، بل صارت مخازن أسلحة وذخيرة، حتَّى صِرتَ تنزعج من وجود الكنائس، إذا كنتَ صدَّقت أن "الأقباط خونة"، أو أن رجال الدّين المَسيحيّ يلبسون ملابس الحِداد حزنًا على وجودك أنتَ شخصيًّا، أو كنتَ تعتقدُ في ذلِكَ كلِّه وغيره من أوهام كثيرة، تمَّ ضخُّها في رئتيك على مدى سنوات وسنوات، فأرجوك حاول أن تطرح كلَّ ذلِكَ جانبًا - ولو لدقائق- وتقرأ هذا الكتاب؛ ربما تفهمُ أكثر جارَك أو زميلَك أو صديقَك، أو بشَكل عام "شريكك في مِصر"، وأرجوك أيضًا لا تغضب إن اختلفتَ معي في بعض أو حتَّى كلِّ ما ستقرأ، وتذكَّر أن الاختلاف تنوُّع وإثراء.

قبل أن تقرأ:

يعرضُ هذا الكتابُ وجهةَ نظر شخصيَّة عن مشاكل الأقباط في الجانب الاجتماعيّ، أي ما يواجه القِبطيُّ من مواقف حياتية، ويركِّز على ما طرأ على علاقة المُسلِم بالمَسيحيّ، والتوتُّر الذي بدأ في الظُّهور بينهُما.

كل موقف ذكرته حرصتُ فيه على أن أكون على معرفة شخصيَّة بأبطاله، أو أكون أنا نفسي طرفًا فيه؛ حتَّى لا أنقلَ أحداثًا غير مؤكَّدة أو متناقلة بالسَّمع.

لا أدّعي هنا أنني أمثلُ أحدًا سوى نفسي، وبالتّالي فكلُّ الآراء التي سترِدُ في هذا الكتاب تعبِّر عنّي بوصفي مِصريًّا مَسيحيًّا أرثوذكسيًّا، ولا يعني هذا أنني أتحدَّثُ نيابةً عن المِصريين أو المَسيحيِّين أو الأرثوذكس، وكلُّ ما فيه هو وجهات نظر شخصيّة ربما يشاركني بعضُكم الرّأيَ، وربما أيضًا يختلفُ معي آخرون.

ستلاحظ استخدام لفظ أقباط أكثر من مَسيحيِّين، ربما لأنه لفظ مُريح، فضلاً عن أنه يُمَيِّز مَسيحيّي مِصرَ عن باقي مَسيحيّي العالم، كما أنه يُعبِّر عن اعتزازي بمِصريّتي، ولا يُفهَم استخدامي له على أنه احتكار للكلمة أو اختزال لها أو إصرار على أن المَسيحيَّ دون المُسلِم هو فقط المِصري، أيضًا استخدام لفظ "أقباط" أو "مَسيحيِّين" لا يعني التّعميم، ولكنه يعبِّر عن الجزء كما يُعبِّر عن الكُلِّ.

في القسم الثّاني منه أتحدَّثُ عن بعض المفاهيم التي تخصُّ العقيدة المَسيحيّة، ومن جانب اجتماعيِّ أيضًا، أي ما يراه المُسلِمُ ولا يفهَمُه أو يعرفُ سببَه.

هذا الكتابُ لا يحملُ أيَّ رُوح عدائيّة، بل رسالته هي أن نفهم بعضنا بعضًا، حيث إن أغلب المشاكل سببها عدم فَهمِ الآخر المجهول. ولَمّا كان ألف باء الإنسانيّة هو قبول الآخر كما هو: (شَكله، ملبسه، ذوقه، إلخ) وبالأحرى فكره وعقيدته، ولكي تفهَمَ رُدُودَ أفعالي لا بُدَّ أن تفهَم دوافعي، ولكي تفهَمَ دوافعي لا بُدَّ أن تفهمَ كيفَ أفكِّر، ولذَلِكَ يمكن أن تضع عُنوانًا آخر للكِتاب على لسان شخص قِبطيِّ يقولُ: "أرجوك افهَمني".

هذا الكتابُ يحملُ رغبةً حقيقيَّةً في التَّواصُل المبنيِّ على الفَهم، أحدِّثكُم فيه عن "الآخر الذي هو أنا"، وعن هؤلاءِ الذين "جعلوني آخر". هذا الكتابُ هو محاولة للبحث عن "كلمة سواء".

عنوانُ الكتاب "حارة النَّصارى" ليسَ إقرارًا بمعناه الحرفيّ. ولكنه يحمل خوفًا ورفضًا من أن يتحوَّل الوطنُ إلى مُجرَّد حارة، أو أن يتحوَّل الأقباطُ إلى مُجرَّد نصارى ذِمِّيِّين، كما يمكنُ اعتباره مُجرَّد إشارة إلى ذلِكَ المُجتَمَعِ المُغلَق، أو كما قال صديقي أحمد البوهي:

(العنوان متطابق معَ الكتاب، وحسِّيت إنِّي كُنت ماشي معَ مَسيحي في حارته الفِكريَّة).

القِسمُ الأولُ
أرجوك افهَمني

مقدمة

كُنَّا صِغارًا، وكأيِّ إخوة صِغار يتشاجرون ويتصالحون، وكنتُ أقومُ بدور سفير النَّوايا الحسنة بينَ أخواتي البنات، إذا ما كان الشِّجارُ بينَ اثنتين مِنهُنَّ، فأسمعُ من كلِّ واحدة على حِدة، وأتفهَّم موقفها، ثمَّ أقوم بتوضيح وجهة نظر كلِّ مِنهُنَّ للأخرى، وبعد ذلِكَ أبحثُ عن "البُعد الثَّالث" أي النُّقطة التي من الممكن أن تتَّفقا عليها وأبدأ بها، وبدور العتاب حتَّى يتمّ الصُّلح، وكانت محاولاتي كـ"مطيّباتي" تنجحُ بنسبة مائة بالمائة، ففكرةُ توضيح وجهات النَّظر كانت تساعدُ كثيرًا في إزالة أيِّ خلاف، وها قد مضت أيام الصِّبا وكبرنا ولَم نعُد نتشاجر، وحفرت هذه المرحلةُ من حياتنا مكانها كذكريات لتِلكَ الأيام الجميلة. وأثناء كتابتي لهذا الكتاب كنتُ أعرضُ بعض ما أكتبُ على إخوتي وأصدقائي لأستشيرَهُم وأختبرَ وَقعَ ما أكتبُ عليهم، وكان تعليقُ إحدى أخواتي: "إنت كتبت الكتاب بنفس الطِّريقة اللي كنت بتصالحنا بيها زمان".

كم أسعدني هذا التَّعليق، كم أثلج صدري وأشعرني بأنني اتَّخذتُ الطِّريق الصَّحيح؛ إذ كان بالفعل هذا هو هدفي من كلِّ ما كتبتُ، وتمنَّيتُ كما نَجَحَت طريقتي قديمًا بينَ أخواتي في أسرتي الصَّغيرة، أن تنجح الآن بينَ إخوة أكبر في أسرة أكبر، تُسمَّى مِصر.

أكتبُ هذا الكتابَ لا لكي "أجرح"، بل لكي "أضمِّد"، والمُصالَحَة تبدأ دائمًا بعِتاب، وما أكتبه هنا بمثابة "عِتاب" طال قليلاً حتَّى صار "كتابًا".

مصر المصرية بتغني

ما زال مفهوم "الأرض" في مِصر له معنًى خاصٌ، فالأرضُ عِرض، وسنظلُّ نؤمنُ أن "الموت والاستشهاد عشانها ميلاد، وكلنا عشّاق ترابها النبيل" كما قال سيد حجاب، وهذا هو المفهوم الأصليُّ الذي بسببه تكوّنت وتَشكّلت أرضُ مِصر، ساعد على ذلِكَ وجودُ نهر النِّيل، فأصبحت بذَلِكَ مِصر هِبةَ النِّيل، وأصبحت الأرض هي كل شيء عندَ قُدماء المِصريين، وارتبطت حياة المِصريِّ القديم بها، وكوّن دولته القديمة على أساس أن هناك أرضًا وزرعًا وخصبًا ونماءً، وأخذ اسم دولته من لون أرضه السَّوداء: "جيبت" -في بعض التَّفسيرات- التي أصبحت "قِبط" وما زالت تُكتَبُ بالإنجليزية "Egypt"، ومنها قِبطيُّ التي تعني "مِصريّ"، إذًا فأنت قِبطيٌّ، سواءٌ أكنتَ مُسلِمًا أم مَسيحيًّا؛ لأنك تنتمي لتلك الأرض مِصر، و"هي اللي باقية ع الزَّمن معشوقة" على رأي فؤاد قاعود.

حينما تتذوّق طعامًا ما وتجده "ناقص ملح"، بالمثل أشعر أن مِصر "ناقصة حُب"، لذَلِكَ فكلنا مُلزَمون أن نمنحها حُبًّا أكبر، لا أقصد الحُبَّ الهتافِيَّ من نَوعية "المِصريين أهُما حيوية وعزم وهِمّة"، تِلكَ الأغنية التي كلَّما سمعتها أشعر أن هناك مباراة كرة شراب أمامَ المنزل، بل أقصد الحُبَّ العاطفيَّ الذي من نَوعيَّة "أحبُّها بهتزُّ قلبي حينما يُقالُ مِصر" هذا الحب الرَّقيق النَّاعم الذي تشعر معه بخفقان حقيقيّ في قلبك، بينما ينتابُك طوفان من المشاعر.

ولكن هل نتحدَّث كلنا عن "مِصر" واحدة؟
أتصوَّر أن الإجابة "لا".

فكلٌّ مِنَّا يتحدَّثُ عن مِصر أخرى غيرتِلكَ التي يتحدَّثُ عنها الآخر.

فكلٌّ مِنَّا يراها بعين مُختلفة تمامًا.

وكلٌّ مِنَّا يريدُها بصورة مُعيَّنة.

فالبعضُ يريدُها إسلاميَّة.

والبعضُ يريدُها مَسيحيَّة.

والبعضُ يريدُها وهابيَّة.

والبعضُ -وأنا مِنهُم- يريدُها مِصريَّة.

شكرًا لتلك السّيِّدة

كنتُ أمرُّ بجوار سيِّدتين محجَّبتين يبدو أنهما التقيتا بالصُّدفة فوقفتا تتحدَّثان. سمعت لحظة مروري بجوارهما إحداهُما تقول للأخرى "ربنا يشفي كل مريض... مُسلِم. مَسيحي. يهودي. ربنا يعفو عن الكل". وبرغم عدم تعمُّدي سماع ما يدور بينهُما فأن كلام السّيِّدة أثار انتباهي. وقد سعدتُ جدًّا أن أسمع هذا الدُّعاء من سيدة مُسلِمة تُخاطِبُ سيدةً مُسلِمةً أيضًا. فلو كانت تُخاطِبُ سيدةً مَسيحيَّةً ربما كانت هناك شُبهة مُجامَلَة لصديقتها. أمَّا كونُ الحوار يدور بينَ سيِّدتين مُسلِمتين وتتمنَّى فيه الشِّفاء لكلِّ مريض بغضِّ النَّظر عن ديانته. فالحقُّ أقولُ إنها كانت مُفاجأةً لي. فليس سرًّا أن أقول إنني لم أعُد أتوقَّع هذا الآن. فقد أصبح من المعتاد أن أقرأ هذه الجُملة:

"اللهُم اشفِ مرضَى المُسلِمين".

وزاد سماعي لها كثيرًا في الفترات الأخيرة. وكُلَّما سمعتُها أو قرأتها كنتُ أتعجَّب وأتساءلُ: هل حقًّا لا يرغب المُسلِمون في أن ينال الشِّفاءَ مريضٌ غير مُسلِم. وهل الدُّعاء لغير المُسلِم يُعَدُّ حرامًا يتجنبه المُسلِمون! كثيرًا ما كان يحدثُ أن يكون هناك شخص مريض. ويكون هذا الشَّخص زميلاً في العمل أو قريبًا له. كُنَّا نزوره معًا -مُسلِمين ومَسيحيِّين- أو كُنَّا نرسل له بريدًا إلكترونيًّا داعين للمريض بالشِّفاء والصِّحَّة. فكنتُ أفاجأ بأن زميلاً يقول في رسالته التي كانت تصلُنا جميعًا العبارة السَّابقة نفسها: "اللهُمَّ اشفِ مرضَى المُسلِمين". مُتجاهلاً أن زملاءه المَسيحيِّين يقرؤون الرِّسالة نفسها. بل أتصوَّر أنه لم يفكِّر لحظةً في وجودهم أصلاً. وبالمثل في حالات الوفاة التي كانت الجُملة الشَّهيرة الصَّادمة لي: "اللهُمَّ ارحم أموات المُسلِمين" هي

الأكثر استخدامًا في هذه المُناسبات. مَن الذي يُحدِّد نطاقَ الرَّحمة ويحصُرها في المُسلِمين فقط؟ لا أحجر على أحد بالطَّبع في دعواته فهو حُر. ولكن فقط كل ما أرجوه هو مُراعاة مشاعر الآخرين. فكما أن المرض -أو الموت نفسه- لا يُفَرِّقُ بينَ المُسلِم أو المَسيحيِّ. فكيف نفعلُ نحنُ ذلِكَ ونحن نُصلِّي أو ندعو.

أريد في النِّهاية أن أشكر تِلكَ السَّيِّدة التي سمعتُها بالصُّدفة وجعلني كلامُها أتفاءلُ قليلاً. جعلتني أرى أن الأمور ليست سيئةً كما كنتُ أتصوَّر.

يــا رب

قالت: ادعي لي أنجح.

قلتُ: حاضر.

قالت: بسَ إنت بتضحك عليَّ أصلاً.

قلتُ: ليه بس؟

قالت: طنط مريم مابتقولش ندعي، بتقول نصلّي.

قلتُ: مريم مين؟

قالت: جارتنا أم مودي.

قلتُ: آه تقصدى الفرق بين تعبيرات دول ودول؟

قالت: أيوه.

قلتُ: الأصل واحد.

قالت: يعني إيه؟

قلتُ: يعني الأصل إنك تقولي يا رب، تسمّيها دعوة تسمِّيها صلاة، كلها بتقول يا رب.

قالت: عندك حق، قول يا رب.

قلتُ: يا رب!

تختلف بالفعل تعبيراتٌ كثيرةٌ بينَ المُسلِمينَ والمَسيحيّينَ فلكُلٍّ مُصطلحاته الخاصَّة، ولكن لا يمنعُ هذا وجودَ تعبيراتٍ مُشتركَةٍ ومُتشابهة، بحُكم المُعايشة اليَوميَّة والحياتيَّة، ولكن برغم الاختلاف الظاهرى بينَ تِلكَ التَّعبيرات إلا أنها تجمعها دائمًا وَحدَةُ المعنَى، فحينما يطلبُ منك شخص مُسلِم قائلاً "ادعي لي" سيطلُبها منك المَسيحيُّ هكذا "صلي لي" أي "صلِّ لي"،

وهو ذات معنى كلمة "ادعي لي". وفي الحالتين سيكون ردُك "ربنا معاك" أو "يا رب... كذا" وهكذا.

ومن الكلمات التي يتصوَّر كثيرٌ من المُسلمين أن الأقباط يقولونها بشكل مُختلف عنهم هي كلمة "ربّ" ذاتها. فالانطباعُ السَّائدُ أننا نقولها مُعرَّفةً دائمًا أيْ "الرَّب". وفي حال نطقها مُعرَّفةً يقابلها عندَ المُسلمين "الله"، كَأنْ يقول المَسيحيُّ مثلاً "الرَّبُّ مَعَك" بينما يقولُ المُسلِمُ "الله مَعَك". رغمَ أن كلمة "رب" بالتَّحديد تتَّفقُ تمامًا في كلِّ صُوَر نطقها. طبعًا أتحدَّث هنا عن الاستخدام اليَوميِّ لها في الحياة اليَوميَّة، ولا أتحدَّثُ عن لُغة الكتابة.

ولعلَّ أشهر خلاف ظاهريٍّ -وأكرِّر ظاهريٍّ- في التَّعبيرات يكون في جُمَل التَّحيَّات. فتحيَّةُ الإسلام هي "السَّلام عليكُم" بينما التَّحيَّة المَسيحيَّة الإنجيليَّة هي "السَّلام لكُم" وبرغم وجود كلمة "السَّلام" واضحةً جليَّةً في الحالتين إلا أن "عليكم" و"لكم" جعلت الأمر يبدو كما لو أن كلَّ فريق يستخدمُ لُغةً أخرى برفضِهِ الآخر بشدَّة.

يقول المُسلِمُ "صلِّ على النَّبي". ولأننا أبناء ثقافة واحدة، أيضًا بسبب المُعايشة المُشتركة كان لا بُدَّ لتلك الثَّقافة أن تُنتِجَ تعبيرًا مَسيحيًّا مُقابلاً، فظهر تعبير "مَجِّدْ سيِّدَك". ومن الجُمَل التي يستخدمُها الجميعُ جُملة "الحمد لله"، ولكن لها تنويعات مختلفة هنا وهناك تجعلك تميِّز بسهولة هُويَّة قائلها، مثل: "نحمده"، و"الشُّكر لله"، و"الحمد والشُّكر لله". أو حتَّى "الحمد لله الذي لا يُحمَدُ على مكروه سواه". هذا في الجانب الإسلاميِّ. أمَّا في الجانب المَسيحيِّ فنجدُ "نشكُر ربنا" وهكذا.

وبالمثل: "إن شاء الله"، و"ربنا يسهِّل" لهُما استخدام مُشترك، ولكن لم يمنع هذا وجودَ صيغات خاصَّة لكلِّ فريق، فيقول المُسلِمُ "إن شاء الرَّحمن"،

و"إن شاء المولَى". بينما هي نفسها عند المَسيحيِّ "ربنا يرتِّب" و"ربنا يدبّر" و"بنعمة ربّنا" و"ربنا يتمجّد".

أما كَلِمَتا "حاج" و"مقدِّس" فغنيٌّ عن البيان أن كلاً منهما تصلُح للاستخدام الإسلاميِّ والمَسيحيِّ معًا، برغم شُيوع استخدام كلمة "حاج" للمُسلِم وكلمة "مقدِّس" للمَسيحيِّ. بينما الصَّحيح لُغةً أن كلَّ من يَحُجُّ إلى الأماكن المُقدَّسة سواءٌ الإسلامية أم المَسيحية فهو "حاجٌّ"، وكلُّ من يَحُجُّ إلى الأماكن المُقدَّسة التي في "القُدس" سواءٌ كانت كَنيسة القيامة أم المسجد الأقصى فهو "مقدِّس"، نسبةً لاسم المدينة "القُدس".

ومن الأخطاء الشَّائعة في الأعمال السِّينمائيَّة والتِّلفزيونيَّة -عندما تكون هناك أسرة مَسيحيَّة في العمل- التَّعاملُ معَ هذه المصطلحات البسيطة بغير حقيقتها، فدائمًا ما يُصوِّرونها وكأنهُم يتحدَّثون عن سُكَّان كوكب المرِّيخ وليس عن قوم يعيشون بينهُم، مما يشي بجهل واضح بحياة الأقباط الاجتماعيَّة، وربما لو قدَّموا عملاً عن حياة سُكَّان قبيلة "الزولو" بجنوب أفريقيا لكانوا أكثر دِقَّةً ومعرفةً بأمور حياتهم أكثر من معرفتهم بجيرانهم، فنجدُ على سبيل المثال سيِّدةً مُتديِّنةً جدًّا إلى درجة التَّشدُّد يكثِرينَ كلماتها -بداعٍ وبدون داعٍ- كلمة "الرَّب"، وتراها تُقسم بـ"المَسيح الحيّ" على سبيل التَّديُّن رغمَ أن المَسيحيَّة تُحرِّم القَسَم، ومن يُقسِمُ من المَسيحيِّين يرتكب "خطيَّة" بحسب التَّعبير المَسيحيِّ الشَّائع، أي يقترف ذنبًا، والبديل هو كلمة "صدّقني"، ولن تجدونا نكرِّر كلمة "الرَّب" طول اليَوم بتلك الطَّريقة المسرحيَّة، بل ننطقها كما ينطقها المُسلِمون، فهل ثَمَّة خلاف على أننا جميعًا نقول "يا رب"؟

ما الفرقُ بينَ الطّفل المُسلِم والطّفل المَسيحيّ؟

أسمعُ جرس الباب فأذهب لأفتحه، لأجد الفتى أحمد ابن أحد الجيران يُبادرني قائلاً:

-هنبقى نيجي نعلّق زينة رمضان من البلكونة بتاعتكم.

قالها بثقة من يعرف أن طلبه مُجاب، ثمَّ انصرف بعدما وافقتُه على طلبه الذي يُفتَرَضُ أنه سيقوم به بعد عدة أيام، وبعد انصرافه فكَّرت كثيرًا في هذا الموقف البسيط، فالفتى كان يتحدَّث بثقة حسدته أنا شخصيًا عليها، كان يعرف أنه يطرق بابَ جارهم المَسيحيّ ورغمَ ذلِكَ لم يتحرَّج ولم يتردَّد لحظةً، بل لم يفترض أصلاً أن هناك أيَّ عائق قد يَحولُ بينه وبين إتمام مراسم احتفاله بقدوم شهر رمضان الذي كان على الأبواب.

جعلني هذا الموقف أقارن -رغمًا عنّي- بينَ هذا الفتى المُسلِم وبين نظيره المَسيحيّ، فبينما ينشأ الطِفلُ المُسلِمُ في بيئة "صديقة" غير مُعادية لعقيدته بل ويتوقع من كل من حوله قبول ذلِكَ ببساطة، من أول احتكاك له بالشّارع وحتّى الإعلام بكلِّ أشكاله، تجد على الطَّرف الآخر أن الطِفل المَسيحيَّ ينشأ في جوٍ مُختلِف تمامًا، يجعله يدرك منذ تفتُّح مداركه الأولى أنه يحمل شيئًا مُختلفًا عمَّن هُم حوله، سواء في الشّارع أم المدرسة أم أيِّ مكان حتّى تتَّضح له الصُّورة تدريجيًا، فيعتاد اختلافه بل ويتوقَّع أن يُعامَلَ على هذا الأساس.

ربما لم يكُن هذا الموقف ليسبب كلَّ تِلكَ التَّداعيات -وغيرها- لولا أنْ سبقه بأيام موقف آخر يؤكِّد ما ذكرته من اختلاف نشأة كلٍّ من المُسلِم والمَسيحيّ، وبالتالي اختلاف نفسيَّة ومزاج كلٍّ منهُما، إذ كنتُ مُتَّجِهًا لعملي ذات صباح

راكبًا إحدى عربات النقل العام، وكنتُ جالسًا بمكان قريب من السَّائق. كانت العربة تسلك طريق "عبد الناصر" في الإسكندرية. ورغم أن هناك محطَّات خاصَّة لنزول وصعود الرُّكَّاب، ورغم أن أغلب السَّائقين يُصِرُّون على الوقوف في المحطَّات الرَّسميَّة، إلا أن هذا السَّائق كان طيبًا بما يكفي لأنْ يقف لكلِّ من أراد النُّزول حتَّى إنه كان يقف كلَّ عدة أمتار قليلة دون أيِّ تذمُّر، وكان أن استعدَّ شابٌّ صغير السِّن للنزول فوقف بالقرب من باب النزول، كان الفتى يريد أن ينزل عند إحدى الكنائس المُطِلَّة على الشَّارع الرَّئيسي، ظهر ذلِكَ بوضوح عندما قال للسَّائق:

-لو سمحت نزلني قدَّام الكنيسة.

قالها بخجل واضح وبصوت يكاد لا يُسمَع فما كان من السَّائق -الذي كان ودودًا طيبًا معَ كلِّ الرُّكَّاب طوال الطَّريق- إلا أن هبَّ فيه قائلاً:

- هي دي محطَّة إن شاء الله هي كمان ولا إيه؟

صُدِمَ الفتى من رَدِّ السَّائق، فقال له باستسلام:

- خلاص نزلني في أيّ مكان براحتك.

لم يجد السَّائق بُدًّا من الوقوف رغم تذمره الواضح وسخريته اللاذعة من الفتى الصَّغير. وبعدما نزل الفتى استمرَّ في طريقه، وأمام كَنيسة أخرى بعد عدة كيلومترات سمعته يقول بسخرية ناظرًا للكَنيسة:

- محدش عايز ينزل هنا كمان؟

شعرتُ بغُصَّة في حلقي، وشعرتُ بخزي أكثر: لأنني رأيتُ في عين الفتى إحساسًا بالمهانة من سُخرية السَّائق ولم أنصفه، رغمَ إنِّي كنتُ شاهدًا على ظُلم بيِّنٍ وقع عليه، ظللتُ طول الطَّريق ألوم نفسي لأنني لم أتدخَّل، كان من الممكن أن ألوم السَّائق أمامَ الصبيّ فأحرجه وأنصف الفتى، إلا أنني تردَّدتُ؛ لِما أعرفه من حساسية إثارة مشاكل من هذا النَّوع في مكان عام، وظلَّ المشهد كله عالقًا بذهني طوال اليَوم، ولم أكُفَّ عن لوم نفسي، ورحتُ

أردّد في داخلي: كان هناك ألف طريقة لا تسبِّب مشكلة للتَّعامل مع الموقف بدلاً من أن يمرَّ بكل هذا التَّخاذُل وكل تِلكَ السَّلبيَّة. كان من الممكن أن ألفت نظر السَّائق بهدوء إلى أنه طوال الطَّريق لم يلتزم بالمحطَّات الرَّسميَّة. كان من الممكن أن ألوم الفتى نفسه مُنبِّهًا إياه إلا ينطق بكلمة "كَنيسة" فيما بعدُ في موقف مُشابه، وأن يكتفي باستئذان السَّائق في النزول حينما يرى هو الكَنيسة لا السَّائق، وأن أفعل هذا أمامَ السَّائق فيفهَم وحدَه وتصل رسالتي دون مُواجهة مُباشرة. كان من الممكن والممكن والممكن، ولكن تبًّا للحلول التي تأتي بعد انتهاء الموقف فتجعلك أكثر غضبًا.

ولأن المواقف السَّيِّئة تجلب بعضها فتتجمَّع في ذهنك مثل الخفافيش، فقد تذكَّرت موقفًا مُشابهًا حدث معي... منذُ سنوات طويلة كنتُ وقتها في المرحلة الثانوية، وكنتُ راكبًا أيضًا قاصدًا إحدى الكنائس في الإسكندرية، وأردتُ أن أسأل أحد الرُّكَّاب عن المكان الذي يجبُ أن أنزل فيه لأصل إليها، والحق لم يبخل الرَّجل عليَّ بالوصف، لكنه كان كُلَّما أراد أن ينطق كلمة كَنيسة وهو يصف لي الطَّريق كان يضع مكانها كلمة "بتاعة".

تعلَّمت فيما بعد حينما أريد الوصول لمكان كَنيسة لا أعرف مكانها أن أبحث أولاً عن شخص مَسيحيّ لأسأله، وإذا لم أجد فيجبُ أن ألجأ إلى الحيلة كما علَّمني قريب لي، فقد كنتُ أعمل في القاهرة منذُ عدة سنوات وأردت أن أذهب ذات يوم إلى إحدى الكنائس، ولم أكن وقتها خبيرًا بأحياء القاهرة فاصطحبت أحد أقاربي الذي لم يكُن يعرف مكانها، ولكنه على الأقل سيعرف كيف يصل إليها، ذهبنا إلى المنطقة التي تقع بها الكَنيسة وكان لا بُدَّ أن نسأل أحدًا، توقفنا أمامَ إحدى الورش المُنتشرة هناك والتي تتَّسم بها تِلكَ المنطقة، وهَمَسَ لي قريبي ألا أسأل عن الكَنيسة بشَكل مُباشر،

وفوجئتُ به يسأل الرَّجل عن مكان ورشة آخرى وذكر له اسمًا وهميًا.
فسأل الرُّجل:
- ما قالكش هي فين بالظَّبط؟
- لا.. بس قال لي جنبها كنيسة.
- الكنيسة في الشَّارع اللي في وشَّك ده، روح هناك واسأل.
شكرناه وانصرفنا وتحاشينا بذَلِكَ أيَّ نظرة تأفُّف أو تعليق ساخر.

ذكريات مُؤلِمة -مع الأسف- قفزت إلى ذهني بعد انصراف أحمد الصَّغير الذي طرق بابي ليخبرني أنه قرر أن يستخدم شُرفتي في "تعليق" زينة رمضان. هل عرفتم كيف ينشأ كل فريق بمزاج مختلف، وذكريات مختلفة؟ ينشأ المُسلِم وحوله دعم كامل من المُجتَمَع، وينشأ المَسيحيُّ ليواجه رفضًا واضحًا من المُجتَمَع نفسه!

دعوا الأطفـــال

مشاكلُ الأقباط في مِصر ليست فقط ما يراه الجميع واضحًا مثل: الخطِّ الهمايوني المُتحكِّم في بناء الكنائس، أو عدم تولِّي الأقباط مناصب مهُمة، إلى آخر هذه القائمة التي يمكن أن نُصنِّفها على أنها مشاكل بينَ الأقباط والدَّولة، وهي في واقع الأمر لا تُهِمُّني كثيرًا، بل لم أعُد أراها هي المشاكل أصلاً، فقد صار أكثر ما يُهِمُّني هو التَّغيير الذي طرأ على علاقة المُسلِمين بالأقباط، ما يُهِمُّني هو حال التَّوتر بينَ الطَّرفين، ومهموم جدًّا بفكرة أن نعيش آمنًا، فمنذُ ما تعرَّضت له الإسكندرية من أحداث طائفيَّة وأنا أشعر أنني فقدتُ شيئًا ما، إحساسي بالأمن والأمان صار مُختلفًا، ولن أنسى ما حييت أن طفلي الصَّغير وقتها نطق كلمة "أمن" من ضمن مفرداته الأولى التي تعلَّم بها النطق، وكان يقصد قوات الأمن التي رآها من الشُّرفة أثناء حادث طائفيِّ بالإسكندرية.

كان غريبًا على الإسكندرية التي كانت توصف بأنها "مدينة كوزمو بوليتان" أيْ مُتعدِّدة الثُّقافات أن يحدث بها هذا، ولم يعُد بعدها أيُّ شيء مُستغربًا، كان غريبًا أن نرى دماءً طائفيَّةً على أرض الإسكندرية، فماذا بعد الدَّم يا سادة!

إنني قَلِقٌ جدًّا بشأن العلاقة بينَ الأقباط والمُسلِمين، ويزداد قلقي كلما عرفت أن الأمر انتقل للأطفال أيضًا، فقد سمعت طفلة صغيرة تشكو لأمها أن زميلتها في المدرسة قالت لها:

- مش هالعب معاكِ عشان انتِ مسيحيَّة!

مَن علَّم الأطفال هذا الخلاف؟ مَن قال لَهُم إنهُم مختلفون؟ ولماذا أصبحنا بهذه القسوة؟ نعرف أن التَّعليم في مِصر بات في مأزق، وأن بعض المُعلِّمين يُطعِّمون أفكار الأطفال والتَّلاميذ بأفكار مُتطرِّفة فمن يقفُ لَهُم ومَن يحاسبهُم ! أيضًا الأُسَر التي تزرع في وجدان الأبناء كراهيةً مُبكِّرة للآخر، هل يدركون كَم يجنون على أبنائهم بذلِكَ.

كنَّا نجلس معَ بعض الأصدقاء في إحدى "الكافيتريات" على أحد الشَّواطئ، تركت ابني يلعب بحُريَّته معَ ابن صديقي جوارنا على رمل الشَّاطئ، فجأةً جاءني ابني يبكي ووجه ممتلئ بالرِّمال ويشكو أن طفلة كانت تلعب جوارهم قذفتهُم بالرِّمال، ذهبتُ إليها لأفهَم منها لماذا فعلت ذَلِكَ، فقالت أنهُم هُم الذين ضايقوها ففعلت هذا، ولأنها كانت تكبرهُم بعدَّة سنوات فكان من السَّهل إقناعها بأنهُم صغار وأنها هي "الكبيرة" التي يجبُ عليها احتمالهُم، وأقنعتُها أيضًا بأن تبدأ هي "الصُّلح" على أن تخبرني إن ضايقوها مرَّةً أخرى، عُدتُ إلى مكاني وبعد عدَّة دقائق أخرى عاد الطفلان مرَّةً أخرى ليخبراني أن الطِّفلة الأخرى قالت لصديقتها صاحبة المُشكلة الأولى إنه يجبُ إلا نتحدث معَ هؤلاءِ الأطفال أو نلعب معهُم لأنهُم "مَسيحيون"، فقالت لها البنت الأكبر أن المُسلِمين والمَسيحيِّين إخوة، أراحني رَدُّ البنت وشعرتُ أن حواري البسيط معها وعدم تعنيفي لها على الموقف السَّابق كان له أثرٌ طيبٌ، ولم يَفُتها أثناء انصرافنا أن تشير لي بابتسامة مُودِّعة.

لا يسألني أحد كيف عرفت الطِّفلة أننا مَسيحيُّون فهذا أمر في غاية السُّهولة هذه الأيام، بل أن ما يستوقفني هو: ماذا لو كنتُ تعاملتُ بجفاء معَ الطِّفلة التي ضايقت ابني! ماذا سيكون ردُّها على الطِّفلة التي أخبرتها أنه يجبُ ألا نلعب معَ مَسيحيين، هل ردُّها سيكون الرَّد نفسه بأن المُسلِمين

والمَسيحيّين إخوة. أم كانت ستتأثر حتمًا بمعاملتي لها وبالتَّالي كانت ستستجيبُ لدعوة التَّعصُّب على الأقل انتقامًا منّي. أتصوَّر أنه لو ألقينا بذرةً جيدةً في نفس كلّ طفل لصار الغد أكثر إشراقًا.

مَن علَّم هذه الطِّفلة التي كانت تنهى زميلتها عن اللعب معَ المَسيحيّين، مَن زَرَعَ بعقلها ورُوحها تِلكَ الأفكار. من لوَّثها ولوَّث مُجتمعًا بأكمله؟ لماذا تعبثون بقلوب الصِّغار؟ اتركوهُم كما هُم أنقياء القلب. هُم لا يجبُ أن يرتكبوا حماقاتنا نفسها. فقط هُم يريدونَ اللعب ولا يفهُمون لماذا يختلفُ الكبار. إنهُم بُسطاء لا يُدركون حِكمتنا بعدُ. فدعوهُم بُسطاء كما هُم لا كما نحنُ.

دعني أصلّي

كنتُ أتصوَّر أن مُشكلة بناء الكنائس مُشكلة بينَ طرفين فقط هُما الأقباط والدَّولة، بحيثُ كلما أراد الأقباط بناء كَنيسة فعليهم المرور بسلسلة لا تنتهي من التَّراخيص والأوراق والإجراءات، بدءًا من موافقة رئيس الجمهورية شخصيًّا حتَّى أصغر موظَّف، مرورًا بالجهات الأمنيَّة، هذا هو الشَّكل التَّقليديُّ للمُشكلة والسِّيناريو المُفترض لها، حتَّى اكتشفتُ أنها لم تعُد كذلِكَ، ليسَ لأن الدَّولة لم تعُد طرفًا، بل لأنهُم صاروا ثلاثة أطراف، فقد ظهر طرفٌ ثالثٌ صار معنيًا بالأمر، بل صار هو سبب المشكلة ربما أكثر من الدَّولة ذاتها، هذا الطَّرف هو -مع الأسف- بعض المُتطرِّفين، الذين يتطيَّرون دائمًا كلما سمعوا عن خبر بناء كَنيسة جديدة، كأن إيمانَهُم سينقص أو يتزعزع كُلَّما بُنِيَتْ كَنيسةٌ.

وبسبب دخول الطَّرف الثَّالث في المُعادلة، صِرنا نسمع كلَّ فترة قصيرة عن خبر حرق كَنيسة على وشك البناء أو بيت يصلِّي فيه أقباط قرية أو منطقة لعدم وجود كَنيسة، ودائمًا تحدثُ تِلكَ الحوادث بعد صلاة الجُمعة من شباب مُتطرِّف فرغ لتوِّه من إتمام شعائره، ولا أعرف كيف يفسدون صلاتَهُم بجريمة كهذه ! وإذا كان التَّحريض يتم من شيخ الزَّاوية التي كانوا يصلُّون بها فكيف يقبل عموم المُسلِمين هذا التَّصرُّف الذي يُسيءُ لَهُم؟ وكيف يكون شعور القِبطيِّ تجاة الإسلام ذاته؟ أرجو إلا تُغضِبَ صراحتي أحدًا، فهذا حقًّا ما نفكِّر فيه بعد كلِّ حادثة، وليس من المفيد إنكار أشياء تحدث فعلاً إذا كنَّا مُتفقين على أننا يجبُ أن نخرج من دائرة التَّطرُّف، لا لصالح الأقباط بل لصالح المُجتَمَع نفسه بكل فئاته.

أفكِّر كثيرًا في موقف ذلِكَ الشَّيخ، كيف يقضي بقية يومه بعد ما يتأكَّد له أن النيران التهمت البيت أو الكَنيسة وربما قتلت أحدًا. هل يدخل بيته سعيدًا راضيًا ليأكل معَ زوجته وأطفاله أو أحفاده متجاهلاً ما سبَّب من دمار، وبأيِّ ضمير مُطمئنٍ سيُكمِلُ صلواته؟ وماذا سيقول لربِّه. لكم وددتُ لو واجهته بكلِّ هذا، لكم تمنَّيت أن أسأله ماذا يزعجه في أن يصلِّي جيرانه المَسيحيُّون في بيت أحدهم، وهل يمثِّل ذلِكَ خطرًا على المُسلِمين، هل يخاف المُسلِمون فعلاً من الكنائس، هل يخشون على الإسلام إلى هذا الحدِّ، ومِمَّن، وهل يعتبرونها بيت سحر أو مخزن ذخيرة، أم هل الأمر محض كراهية من هؤلاءِ المُتطرِّفين، هل يرون أن الصَّلاة في بيت غير مُرخَّص جريمة شرف تستحقُّ كلَّ تِلكَ القسوة، وإن كانت جريمة فمن المنوط به أخذ حق المُجتَمَع وعقاب الأقباط على جريمتهم الدَّولة أم الأفراد، هل نتحوَّل تدريجيًّا إلى مُجتمع قبليّ، كثرة الأسئلة لم تسمح لي بوضع علامات الاستفهام فضعها أنت من فضلك!

في واقع الأمر إنني ألومُ المُسلِمين المُعتدلين بشدَّة؛ لأنهُم يجبُ أن يقفوا معَ المَسيحيِّين في تِلكَ المواقف، وأن يكُون لَهُم موقف واضح. لا أعرف ما هو ولكن فكرة أن نتضامن معًا لحلِّ مشاكل أيِّ طرف في تصوُّري هو الطَّريق الأصحُّ، تمامًا كما يتوقَّع المُسلِمون من الأقباط أن يتضامنوا معهُم فيما يخصُّ المُسلِمين من مشاكل. يجبُ أولاً أن تصدِّقوا أن هناك مشاكل، فجزء من المشكلة يكمن في عدم اقتناع الكثيرين من المُسلِمين بوجود مُشكلة أصلاً، لو حدث هذا سيُعطي انطباعًا إيجابيًّا مُتبادلاً مِمَّا يحولُ دونَ أن نتحوَّل إلى مُجتَمَع مُنقَسِم على ذاته، حيثُ لا يرى كلُّ فريق سوى ما يُهِمُّه هو فقط.

يتصوَّر البعض أن عدد الكنائس الحالي يكفي ويزيد عن حاجة الأقباط. ولا أعرف من رشَّح هؤلاءِ لتوزيع الأنصبة من بيوت العبادة. وهل يتطوَّع أحدُهُم ليخبرنا إن كانت المقاهي تكفي عدد المِصريين أم يوصي بفتح المزيد منها؟

يغضب البعض من استخدام بعض بيوت الأقباط للصَّلاة. فيما يُسمَّى بالكنائس السِّرِّيَّة. ويبدو أنها سِرِّيَّة حتَّى أن مِصر كلها تعرف كلما فعلها أيُّ قِبطيٍّ. وأتساءل لماذا يضطرُّ الأقباط إلى ذلِكَ أصلاً؟ هل هو أمر مقبول أن يصلِّي الأقباط سرًّا بينما يُباعُ الحشيشُ جهرًا في الطُّرقات؟ هل يرضى المُسلِم أن نختبئ كمطاريد الجبل كُلَّما أردنا الصَّلاة؟ دعني أصلِّي وسوف أصلِّي -مُخلِصًا- من أجلك. دعني أصلِّي في النُّور غير مختبئ منك.

أن تِلكَ البُيوت لا تصلُح أبدًا لكل المناسبات الكنسيَّة. فنحنُ نحتاج الكَنيسة ليسَ فقط للصَّلاة بل لمراسم أخرى كالزَّواج أو حالات الوفاة. وبالتَّالي لا تكون البيوت مُناسبة لعمل صلاة الإكليل أو صلاة الجنازة. فضلاً عن أن طقوس الصَّلوات نفسها في أمور كثيرة -القُدَّاس مثلاً- يجبُ أن تكون في كَنيسة.

هل عرفتم الآن لماذا لم أعد أرى أن القوانين الظَّالمة فقط هي العائق أمامَ بناء كَنيسة؟ لا مانع بالطَّبع من إصدار قانون مُوحد لبناء دور العبادة. والتخلُّص للأبد من الإرث العُثمانيِّ المُسمَّى بالخطِّ الهمايوني. ولكنه لن يكون ذا فائدة حقيقيَّة إن بقيَ التَّعصُّب والتَّطرُّف تحتَ الجلد. فلا بُدَّ من علاج التَّعصُّب واستئصاله والكراهية الكامنة في صُدور البعض.

على أن يتمَّ هذا في خط مُوازٍ معَ الدَّعوة لإصدار القانون الموحد لدور العبادة، وإلا ستصبحُ كل فائدة ذلِكَ القانون أن يجعل مشكلة بناء الكنائس تعود لتصبح بينَ طرفين مرَّةً أخرى معَ فارق بسيط: أنها ستصبحُ بينَ الأقباط والمُتطرّفين.

مقارنة غير عادلة

هل الأقباطُ مواطنون أم كُتلة سياسيَّة؟ هل هُم حِزب؟ هل هُم جالية مُنفصلة؟ بالطَّبع هُم مُواطنون لَهُم ما لأيِّ مواطنٍ من حقوق وعليهم ما عليه من واجبات. يبدو هذا أمرًا بديهيًا لا يحتاجُ أن يُكتَب، ورغمَ ذلِكَ يطيب للبعض دائمًا مقارنتهُم بالإخوان المُسلِمين، كما لو كانوا حِزبًا أو كُتلةً أو جماعةً. فكلما تحدث الأقباط عن مشاكل أو مُضايقات يتعرَّضون لها تحدَّث هؤلاءِ "البعض" عمَّا يتعرَّض له الإخوان من مشاكل أيضًا. وكلما حدثت واقعة تمييز ضدَّ أيِّ قِبطيٍّ يكون رَدُّ هؤلاءِ دائمًا هو ذكر ما يحدث للإخوان من تمييز مُشابه.

وبالمثل إذا لم يعين قِبطيٌّ في مكان ما أو تمَّ تجاوز حقِّه في تعيينه مُعيدًا في أيِّ جامعة، ستجدُ على الفور عشرات القصص التي يُحكى فيها عن شباب تمَّ رفضُهُم في وظائف مُعيَّنة لأنهُم مُلتحون، أو الفتاة التي لا تجدُ فرصة عمل لأنها مُنتقبة. وسيذكرون إعلانات الوظائف الخبيئة التي يطلبون فيها فتيات "حسنة المظهر" والتي يترجمونها دائمًا بأن المقصود منها أن تكون فتاةً سافرةً أيْ غير مُحجبة. وبالتالي على الأقباط أن يكفُّوا عن الصراخ، فها هو "التَّمييز" يطالُ الجميع بلا "تمييز".

والأهمُّ من ذلِكَ أنهم سيقولون أن الإخوان يتعرَّضون للاضطهاد أكثر من الأقباط. فهُم يُسجَنون ويتعرَّضون لمُطاردات أمنيَّة لأنهُم إخوان، بينما لا يتم سجن الأقباط ولا يطاردهُم أحد، وهكذا تمضي المقارنة على قدم وساق، كأنهُم حِزبان مُتنافسان. وهي مُقارنة غير جائزة بالمرَّة. فالأقباط ليسوا حِزبًا ولا كُتلةً وليس لَهُم مشروع سياسيٌّ مثل الإخوان. فكيف نقارن

مُواطنين عاديين لَهُم مشاكل ما بكُتلة لها أهداف سياسيَّة؟ مُقارنة غير عادلة؛ لأن من شأنها تفتيت حقوق الأقباط فضلاً عن أنها لن تنصف الإخوان في قضيَّتهم. وبالمثل يتحدَّثون عن الكنائس المفتوحة طوال اليَوم ويقولون أن المساجد لا تتمتع بتلك الميزة، بينما الحقيقة أن بعض الجماعات المحظورة تتخذ من المساجد أماكن تجمُّع لها، ولا يحدث هذا في الكنائس حيثُ لا جماعات مَسيحيَّة سياسيَّة أصلاً.

أنا هنا لا أنكر على الإخوان مشاكلهُم وهُمومَهُم الخاصَّة، بل أتألم -من مُنطلَقٍ إنسانِيّ- لأيّ ظُلم يتعرَّضون له، ولكنهُم في صدام معَ الدَّولة لأسباب سياسيَّة، أمَّا الأقباط فما يعانون منه لأسباب دينيَّة وليست سياسيَّةً بالمرَّة، كما يجبُ أن نضع في الاعتبار أن هُموم الإخوان اختياريَّة بسبب انتماءٍ سياسيّ اختياريّ، أمَّا الأقباط فانتماؤهُم هنا ليسَ لحِزب بل لعقيدة، وإذا انضمَّ قِبطيٌّ لحِزب مُعارض أو حركة سياسيَّة مُعارضة فسيحمل مشاكل ذلِكَ الحِزب أو تِلكَ الحركة أيضًا بصفته السّياسيَّة لا الدِّينية، بجانب ما يحمله من هُموم قِبطيَّة، وهكذا.

مِن الطَّبيعيّ أن يختلف نَوع وشَكل التَّميز من فئة لأخرى، فلا يلومنا أحد لأن القِبطيّ لا يُعتَقَل لكونه قِبطيًّا مثلما يحدث معَ الإخوان، فعلى سبيل المثال المرأة -وهي تُعاني التَّميز أيضًا- لا تُسحَلُ في الشَّوارع لكونها امرأة، ولكن ما تعانيه المرأة له أشكال أخرى وهكذا، إذًا لا يصحُّ أن يسرد الإخوان ما يتعرَّضون له ويقولون أن هذا لا يحدثُ للأقباط.

من ناحية أخرى يردِّد البعض: "إنه حتَّى لو قارنّا القِبطيّ العاديّ بالمُسلِم العاديّ، فإنهُم يعيشون الظروف نفسها ويعانون المشاكل والهُموم نفسها، وبالتالي لا محل لادِّعاء الأقباط بأنهُم يعانون من اضطهاد يخصُّهُم وحدَهُم:

فالكُلُّ يلقى المعاملة نفسها في أقسام البوليس مثلاً. ويتضرَّر من الرُّوتين نفسه، ويعاني الغلاء نفسه، إلى آخر ما نعانيه كلنا كمِصريين".

وأقول لهؤلاءِ أن كلَّ هذا صحيح، ولكن الأقباط يزيدون على ذلِكَ أنهُم يحملون الهمَّيْن معًا، الهمَّ الذي يحمله المِصريُون جميعًا والهمَّ الذي يحمله الأقباط وحدهُم.

النّوايـــا

يشكو أحدُهُم بشَكل دائم من أبيه، يحكي لجميع أقاربه عن اضطهاد أبيه له وعن مواقفه المُتعنِّتة معه، يتحدَّث بعضُ الأقارب معَ الأب ليحنو قليلاً على ولده، يردُّ الأب بأنه لا يضطهده بل على العكس يعامله أحسنَ من باقي إخوته، ينصرفُ الأقارب لأحوالِهم وتعودُ العلاقة بينَ الأب وابنه أسوأ مِمَّا كانت، يُعاود الابن الشَّكوى ويُعاود الأقارب التَّدخُّل، ويُعاود الأب تأكيده بأنه يُعامل ابنه كأحسن ما يكون، ينصرفُ الوسطاء بلا دليل واضح على صِحَّة ما يقوله الابن، مِمَّا يُشعِرُه بخيبة أمل، فتتطوَّر العلاقة بينَ الاثنين من سيِّئ لأسوأ، يذكر الابن لأقاربه مواقف مُحدَّدة تؤكِّد صِحَّة ما يُعاني، يُنكرها الأب كلها ويبرر ما يصعُب إنكاره منها بتبريرات كثيرة تصرف النَّظر عن أن يكون السَّبب منها مُضايقة ابنه، مؤكِّدًا أن المشكلة تكمن في شعور وهميّ يسيطر على ابنه تجعله يفهم الأمور بشَكل مُغاير للحقيقة، يحتار الوسطاء بينهُما، فدون اعتراف واضح من الأب بأخطائه تجاهَ ابنه معَ وعد منه بإصلاح الأمر يصبح كلُّ ما يفعلون بلا جدوى، فكيف لَهُم أن يدخلوا في عقل الرَّجل ليعرفوا نيَّته الحقيقيَّة تجاهَ ابنه؟ وهل يتعمَّد ما يفعله معَ ابنه أم كلها أوهام يعيشها الابن ولا أساس لها من الصِّحَّة؟

هذه ليست قِصَّة قصيرة بالطَّبع ولكنها مُجرَّد تبسيط -مُخِلّ- لبعض مِمَّا يعانيه الأقباط، فأحد أهمّ مشاكل الأقباط أنهُم لا يستطيعون إثبات بعض ما يحدُثُ لَهُم من "تعنُّت" أو "ظُلم" حيثُ يدخل الأمر أحيانًا في "النَّوايا"، ويصبح على الطَّرف "المُشتكي" -الأقباط هنا- أن يثبت "نِيَّة" الطَّرف الآخر، وهو أمر شبه مُستحيل في أحيان كثيرة، وغالبًا ما يكون الدَّليل المتوفِّر لدى الأقباط هو تكرار الحدث ذاته بنفس السِّيناريو، فيصبحون أمامَ ظاهرة

مُتكرِّرة ولكن في الوقت نفسه يصعب تحديد "مُتَّهم" كما يصعبُ تحديد النِّيَّة الحقيقيَّة من وراء تِلكَ الأحداث، فينتهي الأمر إلى مُجرَّد شعور ينتابُ الأقباط بوجود مُشكِلة ما، يُقابلها إنكار من الجانب الآخر، ويتحوَّل الموضوع برُمَّته إلى تفتيش في "النَّوايا". وبمرور الوقت ينشأ عن ذلِكَ مناخ عام يُطلِقون عليه "المناخ الطائفي".

ومِن تِلكَ النَّوعية من المشاكل أسوقُ بعضَ الأمثلة:

- كثُرت في السَّنوات الأخيرة حالات اختفاء مفاجئ لكثير من الفتيات المَسيحيَّات، يُكتَشَفُ بعدَها أنهنَّ أسلمنَ وتَمَّ تزويجهنَّ من شباب مُسلِمين، أدَّى هذا إلى شعور الأقباط بأن هناك حركة "أسْلَمَة" تستهدف الفتيات المَسيحيَّات، بينما يتمُّ تصوير الموضوع من الجانب الآخر بأن الفتاة هربت برضاها، وأنها أسلمت لأنها آمنت وليس لأن شابًّا أغواها أو في أحيان أخرى تمَّ خطفها، وهكذا يدور الجدل بينَ طرفين، يرى أحدُهُما أنه مُستَهدَف ويرى الآخر أن الدُّستور يكفُل حُريَّة العقيدة، وتبقى النَّوايا الحقيقيَّة غير مُعلَنَة، ويصعُبُ إثباتها، بينما يراها الجانب القِبطيُّ مُثبَتَة بحُكم تعدُّد الحالات وتشابُه أسلوب الهروب أو الاختفاء.

- من أكثر الأمور التي أثارت جدلاً فيما يخصُّ مشاكل الأقباط موضوع التَّعيينات في المناصب المُهِمَّة، وأيضًا التَّعيين في هيئة التَّدريس في الجامعات، من وقائع كثيرة تأكَّد للأقباط أن هناك تعمُّد واضح في سحب البساط من تحت أقدامهم في تِلكَ المناصب، بينما الجانب الآخر يرى أنه لا رابط بينَ تِلكَ الوقائع، وأن التَّعيين يتمُّ وفقَ شروط ومعايير مُحدَّدة، وليس مقصودًا أن يُستَبْعَدَ الأقباطُ منها، ولم ينسَ من يريدُ أن يعترف بوجود مآخذ على موضوع التَّعيين في الجامعة ذِكر أن الوساطة وتعيين أبناء

الأساتذة أهم العوامل المُتحكِّمة. وهذا يُصيبُ المُسلِمَ والمَسيحيَّ. فلماذا يشعر المَسيحيُّ وحده بالاضطهاد هنا؟ بينما يرى الجانب القِبطيُّ أن وجود الوساطة والمحسوبيَّة لا ينفي وجود موقف غير مُعلَن أيضًا تجاه الأقباط. أيْ أن القِبطيَّ يحمل "الهمَّين" معًا "همَّ" الوساطة و"همَّ" ما يُعانيه كقِبطيّ. بينما يُعاني المُسلِمُ من "همِّ" الوساطة فقط. وهكذا لا نصل إلى حلول. فلن يعترف أحد بأن الأمر مُتَعَمَّد. ولن يستطيع في المقابل أن يدخل أحد إلى عقل المسئول في كلِّ موقف ليعرف نيَّته الحقيقية.

- لعلَّكم تذكرون أن أول قرار اتخذته الحكومة في بداية ظهور مرض أنفلونزا الخنازير كان التَّخلُّص من كل الخنازير وإعدامها. ولعلَّكم تذكرون تِلكَ الهِمَّة والسُّرعة التي تمَّ بها تنفيذ هذا القرار. لا أناقشُ هنا صِحَّة أو خطأ القرار. بل أناقشُ تداعياته وردود الفعل التي دارت وقتها. والتي كان أغلبها يُعبِّر عن غضب الأقباط من هذا القرار واعتباره قضاءً على مصدرٍ اقتصاديٍّ مُهِمّ يعول الآلاف من الأسر القِبطيَّة. من جانبها أكَّدت الدَّولة أن هذا القرار إنما كان بدافع الحماية من انتشار ذلِكَ الوباء القاتل. وكان الإعلام قد حشد الرَّأي العام في هذا الاتجاه. وأقنع الجميع بأن هذا الإجراء صحيح مائة بالمائة. ولم يكُن واضحًا رغبة أحد في الدِّراسة قبل تنفيذ القرار. حتَّى أن مُنظَّمة الصِّحَّة العالميَّة نفسها عارضت القرار ولم يسمعها أحد. ووصفته مُنظَّمةُ الفاو بالقرار الخاطئ. واضطرَّت المُنظَّماتُ الدَّوليَّةُ إلى تغيير اسم المرض وعدم الإشارة إلى الخنزير. ولم تتخذ أيُّ دولة أخرى في العالم قرارًا مُشابهًا. حيث إن الفيروس قد تحوَّر وأصبح ينتشر بينَ البشر. كان منطقيًا إذًا أن يشعر الأقباطُ أن هناك ظُلمًا وقع عليهم بهذا القرار. إن لم يكُن بالقرار ذاته فعلى الأقل بطريقة تنفيذه وعدم صرف تعويضات للمُتضرِّرين. وكان أصعب ما في الموضوع هو أن الأقباط كانوا يبحثون في "نِيَّة" مَن اتخذ

القرار ولم يستطيعوا إثبات شيء، بل صارت أيُّ مُعارَضَة لذَلِكَ القرار وقتها تعني التَّوبيخ الفوريَّ والاتهام بتفضيل المصلحة الخاصَّة على المصلحة العامَّة. فكيف لصاحب الصَّوت المُعارِض أن يثبت أن "نِيَّة" مُتَّخِذ القرار كانت الوقاية حقًّا من الوباء، وليس مُجرَّد انتهاز فرصة لاتخاذ قرار كانوا بالفعل يرغبون في اتخاذه من قبل ظهور الوباء أصلاً؟ فضلاً عن مُغازَلَة المشاعر الدِّينيَّة للأغلبيَّة المُسلِمَة. والسُّؤالُ الأهمُّ هو لماذا هناك أزمة ثقة بينَ الحكومة والأقباط تؤدِّي إلى الشَّكِّ في النَّوايا دائمًا؟

يتَّضح من تِلكَ الأمثلة أننا نتحدَّث عن أشياء غير "ملموسة" ولكنها "محسوسة"، وبرغم وجود مشاكل ملموسة ومُحدَّدة ومعروفة للجميع مثل مشكلة بناء الكنائس والخط الهمايوني. إلا أن ما هو "ملموس" هو في النهاية واضح ومطروح دائمًا على مائدة المفاوضات، بينما "التعنُّت" الآخر "المحسوس" الذي يصعب إثباته هو أصعب وأخطر، تمامًا كما نشعر بوجود الهواء ولا نستطيع أن نلمسه، أو كالملح الذَّائب في الماء تشعر به ولا تراه.

وسط أجواء كهذه يصبح من الذَّكاء ألا يرشِّح قِبطيٌّ نفسَه في أيِّ انتخابات، فهو يعرف ويدرك صعوبة أن يفوز، فتزداد عُزلة الأقباط وانغلاقُهُم على أنفسهم، ثمَّ نجدُ المُجتَمَع نفسه يتَّهمهُم بالسَّلبيَّة. ويستمر الحال كما هو حيثُ هناك دائمًا طرف مُتعنِّت وطرف آخر يصرخ ولا يصدِّقه أحد.

الأقباطُ لا يمثّلونَ الغـربَ

من المُمتع جدًّا أن يكون لي صديقٌ مُسلِمٌ مُتفتِّحٌ، وعلى قدر من الوعي والثَّقافة يُتيحُ له استيعاب هُموم شركائه في الوطن، ويُسعدني جدًّا أن أتحدَّث معه في تِلكَ الهُموم من وقت لآخر. وذات حديث كنَّا نفنِّد معًا أسباب التَّطرُّف وكيف وصلنا لمرحلة شديدة الخطورة والضرر على مجتمعنا. تحدَّثنا عن أشياء كثيرة قد تكون من أسباب ظاهرة التَّطرُّف، وحاولنا الوصول أو الرُّجوع إلى نقطة البداية. تحدَّثنا عن المدّ الوهابي الكاسح، وعن الذين ذهبوا للعمل في بلاد النِّفط وعادوا بأفكار متشدِّدة، ونجحوا على مدار سنوات طويلة في تغيير عادات مِصريَّة أصيلة واستبدالها بعادات تِلكَ البلاد، ثمَّ ظاهرة شيوخ الكاسيت، التي سادت فترة طويلة. وقلتُ لصديقي إنني كثيرًا ما كنت أسمع هؤلاءِ الشُّيوخ في المواصلات وكيف كانوا يلعنوننا كمَسيحيِّين، وكنتُ أسمع إهانتي ولا أجدُ سوى السُّكوت وتقبُّل الواقع. كان الأمر مثل سيجارة السَّائق التي ينفثها فيحرق دخانها صدور الرُّكاب وعليهم قبول ذلِكَ. واتفقنا على أن كل ذلِكَ لم يكُن كفيلاً بأن يصل بنا لِما نحنُ فيه الآن. ماذا إذًا؟

قلتُ إنهُم شيوخ الفضائيَّات الذين تباروا في تحريض الشَّباب وحثِّهم المستمر على الجهاد ومُحاربة الكُفَّار. هل هذا كل ما في الموضوع؟ بالطَّبع لا. فهناك بداية أكثر وضوحًا من كل ذلك. هناك حدث جلل يكاد يكون هو السَّبب الرَّئيسي، وما نعانيه الآن أو ما يعانيه العالَم كله ليسَ إلا تداعيات ذلِكَ الحدث. وأقصد بالتَّحديد انهيار الاتِّحاد السُّوفيتِّيِّ، وانفراد أمريكا بالملعب وحدها، وما ترتَّب على ذلِكَ من تغيير شَمِلَ كُلَّ شيء. وأذكر وقتها وقبل أن ينهار الاتِّحاد السُّوفيتِّيّ كانت أغلب "المانشتات" تتحدَّث عن الحرب الباردة

بينَ القُوّتين، وكنّا نعيش احتمالات حدوث حرب عالميّة ثالثة، كانت أجواء مشحونة قلقة حتّى إنني سعدتُ بخبر سقوط إحدى القُوّتين ليسَ كرهًا لهذه ولا حبًّا لتلك، ولكن فقط لنتخلّص من قلق ترقُّب حرب عالميّة جديدة، ثمّ اكتشفنا بعد سنوات قليلة أن انفراد قوة واحدة هو الأكثر خطرًا، فقد اغترت أمريكا بقوتها وفرضت سيطرتها شرقًا وغربًا، وعادت أجواء الحروب مرّةً أخرى، بل عادت الحروب ذاتها، وخسرنا للأبد فُرَص الطُمأنينة التي كان يفرضها وجود قوة أخرى، فتعمل كلُّ قوة حسابًا للأخرى، فلا يفعلان شيئًا سوى مُناوشات مُتبادَلَة.

أما الآن فأمريكا هي سيدةُ العالم، ولم تكُن تِلكَ السَّيّدة على خلق قويم فتنشر العدل في أرجاء المعمورة، بل كان شأنها في ذلِكَ شأنَ كلِّ مملكة أو إمبراطورية سادت في حقبة مُعينة من حقب التّاريخ، فلم نقرأ في كتب التّاريخ حتّى المُزوَّرة منها أن هناك إمبراطورية حكمت العالم فأهدت لكلِّ دولة صغيرة قطعةَ أرض هدية أو مِنحة لا تُرَدُّ ! بل كانت دائمًا كل مملكة أو قوة حاكمة لها أحلام توسُّعيّة، ورغبة في إحكام سيطرتها على كلِّ المسكونة، وهذا هو عين ما تفعله أمريكا، وأتصوَّر أن العرب إذا سادوا سيفعلون الشّيء ذاته، إنه ناموس طبيعيٌّ وسُنَّة كونيَّة لا مفرَّ منها. وطبيعيٌّ أن يترتَّب على ذلِكَ ردود فعل رافضة، وأن يتم التَّعامُل معَ أمريكا على أنها السَّاحرة الشِّرّيرة التي تريدُ مصلحتها فقط على حساب أيِّ مصالح أخرى، وبما أننا - الدول العربية والإسلامية- كان لنا دورٌ مُهِمٌّ في إسقاط الاتّحاد السُّوفيتِّي، أو بمعنى أصح تمَّ استخدامنا جيدًا لنلعب هذا الدَّور، من خلال بثِّ فكرة أن الفِكر السُّوفيتِّيَّ الشُّيوعيَّ يُشَكِّل خطرًا على الأمّة الإسلاميَّة: حتَّى يتحوَّل الأمر إلى صراع مصيريّ بينَ الإيمان والكُفر، ثمَّ آلت الأمور إلى انهيار الاتّحاد السُّوفيتِّي، وبعدَ سنوات كان من الطبيعيّ أن نحلَّ محلَّه كقوى مُعارضة، ثمَّ

تتطوَّر الأحداث لتصبح أمريكا المَسيحيَّة هي الخطر الجديد للأمَّة الإسلاميَّة، ونصبح أمامَ صراع مصيريٍّ آخر.

ما علاقة التَّطرُّف في مِصر بكلِّ ذلك؟ في الواقع لو أمسكنا كلَّ عناصر الصُّورة معًا سنجدها هكذا:

بعد انهيار الاتِّحاد السُّوفيتِّيِّ تغيَّرت خريطة المنطقة كلها، وأصبحت أمريكا - بانفرادها بالحُكم- تسيطرُ على العالم كله، وتفرض أنماطًا حياتيةً وفكريةً واستهلاكيةً عليه، وهو ما يُعرَفُ باسم "العولمة"، يطالُ ذلِكَ بالطَّبع العالَمَ الإسلاميَّ الذي يرفض من جانبه محوَ هُويَّته وهذا حقُّه تمامًا، فقام هو الآخر بإنتاج أفكار وأنماط وسلوكيات مُضادَّة للعولمة تمَّ إنتاجُها وبثُّها من دول الخليج، لذَلِكَ يجوز أن نسمِّيها "خلجنة"، وكان من تداعيات ذلِكَ ظهور أفغانستان على سطح الأحداث كأكبر بؤرة إرهابيَّة، فضلاً عن كونها كانت أصلاً أداةً أمريكيةَ الصُّنع لإسقاط الاتِّحاد السُّوفيتِّيِّ، أصبحت بعد ذلِكَ حُرةً طليقةً تصدِّر الإرهابَ إلى دول العالَم، وطال مِصرَ من ذلِكَ نصيبٌ لا بأس به عانت منه كثيرًا ولا تزال.

ومِن تداعيات انهيار القوة المكافئة لأمريكا أيضًا احتلال العراق، ولم تكن لتجرؤ لو كان هناك مَن يُنازِعُها السَّيطرة على العالم، كما أساءت أمريكا التَّصرُّف في حقِّ العالَم الإسلاميِّ كثيرًا، كما في العراق، ومُشكلة فلسطين ومساندتها الدَّائمة لإسرائيل، وبالتالي يتعامل المُسلِمون معَ أمريكا باعتبارها الغرب الكافر الذي يُضمِرُ شرًّا للإسلام والمُسلِمين، ويقوم شيوخ الفضائيَّات وشيوخ بعض المساجد بدور لا بأس به في إذكاء تِلكَ الرُّوح الغاضبة، بالحديث الدَّائم عن الحرب بينَ الإسلام والغرب المَسيحيِّ، ثمَّ اتَّسعت الدَّائرة لتشمل دولاً كانت صديقة مثل الدَّانمارك من خلال أزمة الرُّسوم، كل هذا سبَّبَ حالةَ شحن وتوتُّر، بينما لا ننظر نحنُ كأقباط لهذا الصِّراع

في إطار أنه حربٌ دينيةٌ كما يراها كثير من المُسلمين، وإنما نضعه في سياق أنه خطأ تاريخيٌّ ترتكبه أمريكا، لذلك يأخذ اعتراضنا دائمًا الشَّكل الهادئ غير المُنفعل، بينما يربط البعض بين كل هذا والمَسيحيّين أنفسهم، حتَّى أن أحد المُسلِمين -وهو مطرب شعبي- قال في مُداخَلَة تلِفونيَّة معَ أحد البرامج أثناء أزمة الرُّسوم: "مش كفاية سكتنا لهُم في محرم بيه!"، وكان يشير لواقعة "مُحرَّم بك" بالإسكندرية ويفترض أن هؤلاءِ الذين قدَّموا المسرحيَّة في مُحرَّم بك هُم ذاتهم الذين نشروا الرُّسوم في الدَّانمارك! فما الذي جعله يربط بيننا وبين الغرب؟ إذًا ما حدث هو تحميل المَسيحيّين عمومًا ما يفعله الغرب كما لو كنا جاليةً أجنبيةً لَهُم، ولم يعُد أمامَ المُسلِم سوى تفريغ غضبه الذي شحنوه به نحوَ شريكه في الوطن، الذي هو في النهاية مثله يقع عليه مثل ما يقع على شريكه من ضرر.

ما بينَ الاضطهادِ العالميّ والاضطهادِ المحليّ

يشعرُ الأقباطُ بالاضطهاد ويرصدون لذَلِكَ أمثلةً وحوادث كثيرةً. ويشعرُ المُسلِمون كذَلِكَ بالاضطهاد ويرصدون لذَلِكَ أيضًا أمثلة وحوادث كثيرةً. صار كلُّ فريق يتحدَّث عن مشاكله هو فقط. ولم يعُد باديًا أن أحدهُم يريدُ للآخر أن يعبِّر عن هُمُومه. ويرى أن مشاكله أهمُّ. فكانت النَّتيجة أن تقوقع كلُّ طرف على ذاته ووصلنا إلى عُزلة من نَوع خاصٍّ لكلِّ فريق. لذَلِكَ يحتاج الأمر هنا إلى الوصول إلى درجة أفضل من الفهم المُشترك. فالقِبطيُّ يحتاج مِن المُسلِم أن يصدِّق مشاكله ويقتنع بها. بل ويسانده إذا لزم الأمر. والمُسلِم كذَلِكَ ينتظر من القِبطيِّ المؤازرةَ والتَّضامُن معه في مشاكله. ولكن ما هي طبيعة مشاكل كل فريق؟

في تصوُّرى أن أهمَّ فرق بينَ مشاكل الأقباط ومشاكل المُسلِمين هو في كون مشاكل الأقباط مَحليَّة. بينما مشاكل المُسلِمين عالميَّة.

وللتوضيح أكثر أقول: أن الأقباط حينما يتحدَّثون عن اضطهاد أو تمييز فهُم هنا يتحدَّثون بصفتهم مِصريين مَسيحيِّين. لَهُم مشاكل داخل مِصر فقط. لذَلِكَ يكثر استخدامي لكلمة أقباط أكثر من كلمة مَسيحيِّين للتَّأكيد على الخصوصيَّة المِصريَّة لمشاكل الأقباط. أمَّا مشاكل المُسلِمين فتنبع من كون المُسلِم يؤمنُ بمفهوم "الأمَّة الإسلاميَّة" وبالتالي يضمُّ إلى مشاكله كلَّ مشاكل المُسلِمين في العالَم. فالمُسلِم يشعر بالاضطهاد لأن إسرائيل احتلَّت فلسطين. ولأن أمريكا غزت العراق. ولأن رسامًا دانمركيًّا قام بنشر رسوم مُسيئة للإسلام وهكذا...

وحينما يؤكِّد كلٌ فريق -في معزل عن الآخر وكلٌّ على منبره- أنه مُضطهَد بينما لا يعاني الآخر مثله، ففي واقع الأمر هو يتحدَّث عن مُحيطه ولا يرى هُمومَ الآخر. لذلِكَ من الأهمية بمكان أن نفضَّ هذا الاشتباك بينَ طبيعة شعور كلِّ طرف بالاضطهاد؛ حتَّى نقترب أكثر من مشاكل بعضنا البعض، ونكون أكثر تفهُّما لبعضنا البعض.

والغريب أننا -الأقباط- نرى تشابُهًا بينَ عُزلتنا داخل المُجتمَع المُسلِم بسبب عدم فهم هذا المُجتمَع لنا، وبين عُزلة المُسلِمين داخل العالَم ككل بسبب عدم فهم العالَم للمُسلِمين، لا أتحدَّثُ هنا بالطَّبع عن تشابُه المشاكل ولا تشبيه ما يحدثُ للأقباط داخليًا بما يحدثُ للمُسلِمين خارجيًا، أتحدَّثُ فقط عن أشياء مُحدَّدة: هي العزلة وعدم الفهم.

ورغم أن مشاكل المُسلِمين -إلى حد كبير- مفهومةٌ للأقباط، بحُكم أننا نعيش في مُجتمَع مُسلِم ونتابع معه كلَّ ما يحدثُ على السَّاحة العالميَّة، ونعرفُ كيف يرى المُسلِمون كلَّ تِلكَ الأحداث وكيف تؤثر فيهم، إلا أن كثيرًا من المُسلِمين لا يعرفون عن الأقباط سوى القدر القليل جدًّا، فلا نبدو مفهومين لَهُم في كثير من الأحيان وربما يروننا نبالغُ فيما نشعرُ به من تمييز. كما أن الأحداث العالميَّة التي يراها المُسلِمون اضطهادًا هي في الواقع تهمُّنا جميعًا من باب المُشتَرَك الإنسانيّ، فمَن مِنَّا لا يتعاطف معَ فلسطين؟ ومَن مِنَّا لم يرفض غزو العراق؟ ثمَّ أليس في فلسطين والعراق مَسيحيون أيضًا؟ وإذا كانت مشاكل المُسلِمين العالميَّة سببها الكراهية المُتبادلة، فهل يمكن أن ننقذ الدَّاخل من الوصول إلى مرحلة مُشابهة أم سترمي تِلكَ المشاكل ظلالها على العلاقة بينَ المُسلِمين والأقباط في مِصر؟

وأريد أن أوضِح في هذا الصدد أمرًا بسيطًا جدًّا، وهو أن مشاكلنا وإن كانت محليَّةً إلا أنها تستمدُّ أهميَتها من كونها تمسُّنا بشكل شخصيّ، وتمسُّ علاقة المُسلِم بالمسيحيّ، مِمَّا يؤثِّر على سلام المُجتمَع، فهي مشاكل بينَ أبناء وطن واحد، وهذا ربما يكون أشد ألمًا من كونها حدثًا عالميًا لا أملكُ معه إلا التَّعاطُف، أمَّا مشاكل المُسلِمين فهي دائمًا معَ طرف لا يشبهُنا بل يختلفُ عنَّا في جوانب كثيرة، وفي حادثة مروة الشِّربيني وحادث كَنيسة القديسين في الإسكندرية مثال يوضِّح ما أعنيه، فلو نظرنا لجوانب الاختلاف بينَ مروة الشِّربيني وقاتلها لوجدناها كثيرة، فهي مِصريَّة وهو ألمانيٌّ، هي مُسلِمة وهو غير مُسلِم (لا أعرف بالفعل عقيدته)، هي عربيَّة وهو أوروبيٌّ، هي قادمة من عالَم ثالث بينما هو من عالَم مُتقدِّم صناعيًا جدًّا، كلُّ اختلاف هنا - بمفاهيم وصراعات هذه الأيام- يُعَدُّ سببًا كافيًا للكراهية، فماذا لو اجتمعت تِلكَ الأسباب جميعًا ولاقت شخصًا مُتعصِّبًا كالذي تعرَّت فيه مروة الشِّربيني؟ هل تتذكَّرون أحمد زكي في فيلم النمر الأسوَد؟ وهل تتذكَّرون الرَّجل الألمانيَّ المُتعصِّب الذي تحرَّش به كثيرًا وكاد أن يقتله؟ في الأفلام تنتهي الأحداث نهايةً سعيدةً، أمَّا الواقع فللأسف لم يكُن كذَلِكَ معَ مروة.

أما في حادث كَنيسة القديسين فلو قارننا بينَ القتيل وقاتله لوجدنا أن كلاهُما مِصري، وكلاهُما يتحدَّث لغةً واحدةً، وكلاهُما ينتمي لعالَم واحد وظروف واحدة ولم يفرقهُما سوى سبب واحد هو الدِّين، فأيُّ الحدثين جدير بالدِّراسة والتأمُّل، بل أيهُما خليق به أن يجعلنا أكثر رعبًا وأكثر قلقًا؟ في حادث مروة قد نكره الألمان وقد نكره أوروبا كلها، ولن يعني ذلِكَ شيئًا، أمَّا في حادث الكَنيسة فلو حدثت كراهية بينَ المُسلِمين والأقباط فالمُجتمَع كله في خطر.

العُـزلة

لماذا الأقباطُ في عُزلة؟ وهل هُم سُعداء بذَلِك؟ ومَن هو المَنوط به إخراجهُم من عُزلتهم؟

عانى الأقباط لسنوات طويلة من التَّهميش والإقصاء بشَكل تدريجيّ مِن المناصب المُهِمَّة في الدَّولة، بل ومِن المُشاركة السِّياسيَّة الفعَّالة، حتَّى اتجه الأقباط للعمل الحُرّ، وربما يفسِّر هذا ارتباط محلات "الصَّاغة" مثلاً بالأقباط، وقد يفسِّر أيضًا النَّجاح الكبير الذي حققه رجال الأعمال الأقباط. هذا النَّجاح الذي يريد البعض أن يراه بصورة مُغايرة، بحيثُ يصبح دليلاً على عدم تعرُّض الأقباط لأيِّ مُضايقات، بينما هو دليل قوي يؤكِّد حدوثها، وخيرُ مثال على ذلِكَ ما يحدثُ الآن للمُسلِمين والمَسيحيِّين معًا، فبعد أن أُغلِقَ باب الوظيفة "الميري" في وجه الجميع، بدأ الاتجاه للعمل الخاصّ من قِبَلِ كثير من الشَّباب المِصريّ، ورُبَّ ضارَّة نافعة.

تجلَّى ذلِكَ بوضوح في عصر "الرئيس السَّادات" وصدامه المُباشر معَ "البابا شنودة"، وإطلاقه سراح بعض التَّابعين للتيَّارات المُتشدِّدة بهدف القضاء على اليساريين والقوميين، صاحَبَ ذلِكَ ظهور الجماعات الإسلاميَّة ثمَّ المد الوهابي، وكثرة النَّيْل من العقيدة المَسيحيَّة في وسائل إعلامية مُختلفة، فماذا كان أمامَ الأقباط سوى الانسحاب إلى داخل الكَنيسة باعتبارها المُجتَمَع البديل؟ ومع الوقت صار هذا المُجتَمَع قائمًا بذاته، يلبِّي كُلَّ احتياجات الأقباط، من عبادة وأنشطة وأندية، وصار الجو الذي اعتاده القِبطيُّ داخل الكَنيسة هو الجو المألوف بالنسبة له، عمَّقَ هذا إحساسه بالغُربة خارج المُجتَمَع الكنسيّ، فهو يبدأ حياته طفلاً في مدارس الأحد،

يتدرَّج في فصولها الدِّراسية الدِّينية حسبَ سنِّه الدِّراسيِّ، بجانب مُمارسة كثير من الأنشطة داخل الكَنيسة، هو مُجتمع دسم بحق لا يجعلك تحتاج شيئًا خارجه، وكُلَّما حاول القِبطيُّ أن يطلَّ برأسه خارج هذا المُجتَمَع، يجد ما يصدُّه من العالَم الخارجيِّ فيعود أدراجه مرَّةً أخرى، ثمَّ تأتي الطَّامَّة الكُبرى في فصول المدرسة، حيثُ يضعون الأقباط في فصل خاصٍّ بهم حسبَ عددهم، فيعتاد القِبطيُّ بدوره أن يبحث عن مثيله القِبطيِّ، وسيفعلُ الشَّيء ذاته في الجامعة فقد درَّبه المُجتَمَع كله على هذا جيدًا أو دفعه إليه دفعًا. المُجتَمَعُ إذًا وضعنا في خندق ثمَّ أطلق هو نفسه عليه "الخندق المُعادي".

وفي الجامعة حدِّث ولا حرج، حيثُ تلحظ بسهولة تجمُّعات الأقباط فيها، بل صارت لَهُم أماكن تعرف باسمهم مثل: "شارع الأقباط". وأصبح مشهد تجمُّعهم -وعُزلتهم- أمرًا مُستفزًّا لزُملائهم المُسلمين ولَهُم كلُّ الحقِّ طبعًا، فهُم بدورهم لا يعرفون لهذا سببًا، ولا يُدركون الأسباب التي أدَّت بزملائهم الأقباط إلى هذا السُّلوك، فنصل هنا إلى حالة من حالات عدم الفهم المُتبادل، فالمُسلِمُ يرفض هذا التَّقوقع من جانب الأقباط، والقِبطيُّ وجد نفسَه هكذا، فيَنتجُ عن هذا الوضع الشَّاذِّ كثيرٌ من التَّحرُّشات والمُضايقات ومشاكل أخرى كثيرة.

كثيرًا ما تحدَّثت معَ أخي الأصغر بعد دخوله الجامعة، أن يحاول الخروج من إطار "شِلَّة الأقباط" وينضم للمُجتمع الأكبر بتَنوُّعه الحقيقي، فتلكَ العُزلة الدَّاخلية أو حالة الاكتفاء الذاتيِّ قد تكون ضارة للأقباط أنفسهم -وهي كذَلِكَ بالفعل- فبمُجرَّد تخرُّجهُم في الجامعة ودخولهم سوق العمل أيْ عالم التَّحدِّي الحقيقي، الذي لن تكون فيه حُريَّة الاختيار التي كانت متوفرة

طوال سنوات الدّراسة، فيجد نفسه في مأزق التّكيُّف مع العالَم الجديد. وقد يُربكه هذا لشهور طويلة وربما سنوات حتّى يصل لدرجة التّوازُن المطلوبة.

تشبه عُزلة الأقباط داخل المُجتمَع المُسلِم تِلكَ العُزلة التي تحدث أحيانًا بينَ الإخوة في الأسرة نفسها أو بينَ الزّوج والزّوجة، كلاهُما ينتظر المبادرةَ من الآخر، وإذا لم يبدأ أحدُهُم أو يُبادِر ستبقى العُزلة قائمةً لسنوات طويلة.
وإذا أردنا تشبيهًا أوضح، فيمكن تشبيه عُزلة الأقباط داخل المُجتمَع المُسلِم بعُزلة المُسلِمين أنفسهم داخل المُجتمَع العالمي خلال الفترة الأخيرة بعد أحداث سبتمبر، فعلى الصّعيد العالميّ يقعُ عليهم مثل ما يقع على الأقباط داخل مِصر، فهُم يتعرّضون لكثير من المُضايقات وكثير من عدم الفهم الذي يؤدّي إلى الصِّدام، والذي دفع المُسلِمين أيضًا إلى "العُزلة".

ولكن السُّؤال الذي طرحته في أول المقال: "مَن هو المَنوط به إخراج الأقباط من عُزلتهم؟" من الذي يجبُ أن يبدأ؟ هل الأقباط أنفسهم؟ في ظنّي أن الإجابة هي "لا"، بل المُسلِمون هُم الذين يجبُ أن يُبادروا، لا لشيء سوى أنهُم أغلبية عدديّة، وجدير بمن هُم أكثر عددًا احتواء مَن هُم أقل عددًا.

وإذا لم تحدث المبادرات سريعًا فسيكون الخطر على المُجتمَع كله كبيرًا، فكلما كرّسنا العُزلة نحقق خطوة على طريق أن يأتي يوم ينعزل فيه الأقباط في منازل بل مناطق تخصُّهُم وحدَهُم، وربما على مدار سنوات طويلة نصبحُ مثل لبنان في وجود فاصل بينَ المُسلِمين والمَسيحيّين وهذا ما لا نرضاه أبدًا .

الهُويّة الدّينيّة

لم يعُد هناك اهتمام يُعادل الاهتمام بإظهار هُويّتنا الدّينية للآخرين، أصبحت من أولوياتنا الأولى، وهي أيضًا أول ما نحبُّ أن نعرف عن الآخرين، وقد يسألك أحدُهُم عن اسمك وعندما لا يخبره اسمك الأول عن هُويّتِك الدّينيّة سيسألُك عن اسم والدك وهكذا حتّى يعرف أهمَّ ما يُريد أن يعرف، رغمَ إنك قد لا تكونُ مُرشّحًا أبدًا كعريس لابنته، وقد يكون مُجرَّد لقاء عابر أيْ لن تلتقيا مرّةً أخرى، ورغمَ ذلِكَ وفي هذا اللقاء الوحيد لا بُدَّ أن يعرف إلى أيِّ الأديان تنتمي.

وتحتَ هذا الإلحاح والهوس في إظهار الهُويّة الدّينيّة صارت تحدث أشياء كثيرة، منها ما يمكنُ تجاوزه واحتماله ومنها ما لا يجبُ السُّكوت عنه، حيثُ تطوَّرت الأمور من مُجرَّد إعلان الهُويّة إلى رفض عنيف لهُويّة الآخر، بل وإلى رفض إعلان هذا الآخر عن هُويّته، وأخشى أن أقول أن السَّاحة أصبحت لا تحتملُ هُويّتين تتعايشان معًا.

دخلتُ محل لعب أطفال شهير في الإسكندرية لشراء لعبة لابني، ولم يجد صاحبُ المحل آيةً يتبرّك بها في محله سوى "أن الدّين عندَ الله الإسلام"، هكذا ببساطة شديدة لا يكتفي بتصدير هُويّته الدّينيّة لكلِّ "زبون" يدخل المحل، بل يقول لذَلِكَ "الزبون" إن كان غير مُسلِم إنه أحمق وفي ضلال مبين وإنه هالكٌ لا محالة، وعليه أن يهتدي بمجرَّد أن تقع عينيه على هذه الآية.

أحدُ معارفي يعملُ طبيبًا -أنف وأذن وحنجرة- حكى لنا مرَّةً أنه بينما كان يهمُّ بالكشف على أحد المرضى انتفض المريضُ فجأةً وقال له:

-هو انت مسيحي؟؟

-أيوة

-أنا ماخدتش بالي غير لمَّا دخلت غرفة الكشف نفسها من الصُّورة اللي انت حاطتها على المكتب دي.

-وبعدين؟

-أنا أسف مش هاقدر أكشف عند واحد مسيحي.

ذهل الطبيب وأعاد للرَّجل نقوده، وتعجَّب لأن تخصُّصه نفسه لا يجعل الرَّجل يهتم إن كان الطَّبيب مُسلِمًا أم مَسيحيًا، فماذا يضرُّه أن يكون ذلِكَ الطَّبيب الذي يفحص أذنه مَسيحيًّا، ربما في تخصُّص مثل "النِّسا والولادة" كان من الممكن أن يلتمس له عُذرًا، وحتَّى في تِلكَ الحالة هل المعيار هو الكفاءة أم "الدِّين"؟ أنه هَوَسُ الهُوِيَّة حينما تصبح معيارًا.

وحينما اتجه المُجتَمَعُ للتَّعبير عن هُوِيَّته كَكُل من خلال حجاب المرأة، انعكس ذلِكَ على الفتاة المَسيحيَّة بالسَّلب للأسف، حيثُ أصبحت تتعرَّض لمُضايقات ومُعاكسات تمسُّ العقيدة أحيانًا إذ يفترض من يراها أنها ما دامت غير مُحجبة فهي بالضَّرورة مَسيحيَّة، ويوجِّه مُضايقاته في هذا الاتجاه، وفي المواصلات العامَّة يحدثُ أحيانًا أن يفضِّل البعضُ التَّنازُل عن مقعده للسيِّدة المُحجبة، غير ما يمكن أن تسمعه كل فتاة غير مُحجبة أقلها أن تقول لها إحداهُنَّ "ولا تبرَّجنَ تبرُّجَ الجاهليَّة".

كلنا نرفضُ التَّعري ونحترمُ الحجاب ولكنه تحوَّل لوسيلة للتَّمييز بينَ الفتاة المُسلمة والفتاة المَسيحيَّة، ليتمَّ بعد ذلِكَ التَّصنيف على هذا الأساس، فمهما كانت الفتاة المَسيحيَّة مُحتشمةً فهي مُستَهدَفَة، ومهما كانت الفتاة المُحجبة مُتبرِّجة فهي مُصانة.

كل هذا يمكن احتماله أمَّا ما لا يجبُ السُّكوت عنه -مِن كُلِّ مَن تهمُّه سلامَةُ هذا المُجتَمَع- فقد حدث ذات يوم معَ زوجتي- ويحدث معَ كثيرين للأسف- أن ألقى عليها أحدُهُم "ماء نار" لأنها غير مُحجبة، وشدَّ مُدرِّس أخي الصَّليب من رقبته وألقاه أرضًا، ربما ردًّا على فرنسا التي منعت الحجاب في مدارسها، وإن كانت فرنسا منعت كُلَّ الرُّموز الدِّينيَّة ولم تستثنِ الصَّليب. وفي السِّياق نفسه، وفي مدينة ٦ أكتوبر اعترض أحدُهُم فتاة صغيرة في الطَّريق العام وراح ينتهرها بقسوة وعنف أمامَ حشد لا بأس به من المارَّة، مُطالبًا إياها أن ترتدي الحجاب مُتجاهلاً الصَّليب الذي كانت ترتديه. والغريب أن أحدًا لم يتحرَّك ليحولَ بينها وبين هذا الرَّجل، مِمَّا تسبَّب في انهيارها وبكائها، وظلَّت عدَّة أيام تخشى نزول الشَّارع، حدث هذا الموقف في المدينة التي أخذت اسمها من حرب أكتوبر العظيمة التي اختلطت فيها دماء المُسلِم والمَسيحيِّ، حينما كان يجمعُ الكُلَّ هدفٌ واحدٌ.

وفاء قسطنطين

هل تعتقدُ أن هناك حركة أسلَمَة تستهدفُ الفتيات المَسيحيَّات عن طريق تزويجهنَّ بشباب مُسلِمين عن عَمْد؟ أم أن هذه حالات فرديَّة تختلف ظروف كلٍّ منها عن الأخرى ولا تمثِّل تيارًا؟

بهذا السُّؤال واجهني صديقي المُسلِم. ولَمَّا كان الأمرُ يستلزمُ أن أكون أمينًا في ردِّي، فضَّلتُ أن أسترجع في ذهني بعض حالات الأسلمة التي قابلتُها مُحاولاً أن أجد إجابةً مُحدَّدة من خلال إيجاد العوامل المُشتركة بينَ كلِّ الحالات. ولعلَّ أهم تِلكَ العوامل كَون أغلبهم مِن الفتيات، وفي كلِّ قِصَّة كان دائمًا هناك شاب مُسلِم، يختلف فقط السِّيناريو، فمرَّةً تهرب الفتاة معَ الشَّاب ولا تعلم أسرتها عنها شيئًا لأيام طويلة تصلُ أحيانًا لشهور، ومرَّةً تعمل الفتاة معَ الشَّاب وتنشأ بينهُما علاقة مُحرَّمة، وفي حالات أحدث يبدأ الحدث بحوار لطيف على مواقع الدَّردشة على الإنترنت، وفي بعض الأحيان يكون هروبًا من علاقة زوجيَّة فاشلة.

لو حدثت هذه الأمور معَ المُسلِمين لأقاموا الدنيا ولم يُقعِدُوها، وكان الجميع سيردِّدون: إنها مؤامرة، وللتَّوضيح أكثر دعونا نتخيَّل مثالاً بعيدًا عن الدِّين، لنفرض مثلاً أن جاليةً مِصريةً تعيشُ في إحدى الدول، وصادف تعدُّد حالات اختفاء بنات وسيِّدات مِصريَّات، ثمَّ صادف أنهنَّ كُنَّ يهربنَ معَ شباب من البلد الذي يُقِمن فيه، ماذا نتوقَّع أن يكون رَدُّ فعل المِصريين هناك؟ هل ستمرُّ تِلكَ الحوادث مرور الكرام أم سيشعرون بالقلق والخطر، وبعدَ أكثر من حادثة مُشابهة سيحتجُّون ويطالبون حكومة هذا البلد بموقف رسميّ؟

لن أقول أن هناك تنظيمًا. فهذه تهمةٌ قاسيةٌ لا يجبُ أن نتسرَّع في إطلاقها. ولكن على الأقل يخالج الأقباطَ شعور عام أن ثمَّة شيء يحدثُ. وأنها ليست محضَ مُصادفة أن يكون وراء كل فتاة أسلمت يوجد شاب مُسلِم. ونظرًا لا يمكن إنكار أن هناك من يدخل الإسلام إيمانًا به وهذا حقُّه تمامًا إيمانًا بحُريَّة العقيدة. ولكنني لَم أصادف حالةً كهذه. ربما لأنها قد تتمُّ في هدوء ولا يصاحبها أيُّ ضجيج. وتكون بإرادة صاحبها التَّامَّة. أمَّا الذين صادفتُهم كانوا كما ذكرت. تربط بينهُم جميعًا أسباب عاطفيَّة أو جنسيَّة. لا يهمُّ أن يكون عن عَمد كما جاء في سؤال صديقي بل يكفي أن يكون بتأثير عاطفيَ أو ما شابه.

كل هذا كفيل بإذكاء رُوح الإحساس بالمؤامرة لدى الأقباط. ناهيك عمَّا يُسبِّبه هروب فتاة معَ شاب من عار على أسرتها. فيتحوَّل الموضوع ليسَ فقط مُجرَّد تحوُّل في الدِّيانة بل أيضًا لشُبهات حولَ سُلوك الفتاة. يتبع ذلِكَ حالة من الإحساس بالمهانة والخزي من جانب أسرتها المطعونة في شرفها. ويصبح للموضوع شق اجتماعيٌّ. من هنا قد نصلُ معًا لتفسير يوضِّح لماذا تعقَّدت الأمور في حالة "وفاء قُسطنطين". بل إنها كانت النموذج الأسوأ: لأنها فضلاً عن كونها امرأة هي أيضًا زوجة كاهن. وبالتَّالي لَم يعُد الإحساس بالعار يخصُّ أسرتها الصَّغيرة فقط. بل ممَّ وبشَكل مؤلِم أسرة أكبر: لأنها ببساطة زوجة لرجل يقول له الأقباط وهُم يخاطبونه "أبونا". هل تتفهَّمون الآن؟ إنها إذًا ليست كباقي القصص الأخرى يمكن اختزالها في رواية مُكرَّرة "فتاة وشاب" أو "سيدة ورجل" يغضب لها أسرتها وأصدقاؤها ومن تصل القِصَّة إلى أسماعهم. إنها زوجة "قِسٍّ" أي زوجة "أبونا". بل أن بعضَ ذوي النُّفوس المريضة ردَّد بهدف استثارة الأقباط: "أخذنا أمكم فاضل أبوكم". فضلاً عما يراه الجانب المَسيحيُّ في قِصَّتها من وجود رجل

أغواها واستغلّ مشاكلها الأسريّة. ماذا بقي إذًا ليشتعل الغضب الجماعيُّ، هل كُنتم تفضِّلون أن يتصرّف الأقباط كَمَن لا كرامة لَه؟ وفي لعبة تبادُل الأدوار أي لو حدث موقف مُشابه للمُسلمين فماذا سيكون موقِفُهُم؟ يفيدُ جيدًا تمرينُ تَخيُّل نفسك في موقف الطَّرف الآخر في مثل هذه الأمور. وفي التماس العُذر للآخرين.

لو كانت "وفاء قسطنطين" حالةً فرديَّةً لَهَان الأمرُ، أو ربما كان أهدأ. ولكن تكرار تِلك الحوادث وتشابُه قِصَّتها معَ كثيرٍ من قصص كثيرة سابقة يُضافُ لها أنها زوجة كاهن جعل الأمور تصل إلى ما وصلت إليه من مُظاهرات وغضب عام، ولو كانت القِصص السَّابقة انتهت بشَكل يُرضي الأقباط لَهَان الأمرُ مرَّةً أخرى، ولكنها كانت غالبًا تنتهي بصورة سيِّئة من وجهة نظر الأقباط. معَ منعهم بكافة الطُّرق من الوصول للفتاة بطلة القِصَّة. كل هذا جعل من حادثة "وفاء" قشَّة لَم يتحمَّلها ظهرُ البعير، أو بتعبير آخر صارت "وفاء" اختزالاً لكلِّ فتاة ضاعت من وجهة نظرة الأقباط. فكان أن جَمَعَ فيها كُلٌّ غضبَه مرَّةً واحدةً. في مُشكلة "وفاء" ما رأيتموه كان قِمَّة جبل الثلج فقط.

إنها نظريَّة الغضب المؤجَّل مرَّةً أخرى، التي نمارسُها جميعًا في حياتنا الخاصَّة، نؤجِّل ثورتنا لتظهر مرَّةً واحدةً بدلاً من تفريغها على دفعات في حينها.

من الجدير بالذِّكر هنا أن أقول إنني لا أدافع ولا أتهم، ولا أبحثُ في نيَّة "وفاء" الحقيقية، ولا أهتمُّ بتفاصيل قِصَّتها. فقط أفسِّر موقف الأقباط: لأن كثيرًا من المُسلمين تعامل معَ مُشكلة "وفاء" على أن الأقباط جاروا عليهم وأخذوا مِنهم عُنوةً سيِّدةً أصبحت مُسلمةً، ويرون أنها انتقلت من

الظُّلمات إلى نور الإيمان. هذه وجهة النَّظر المُسلِمة ويعلمُها الأقباط بالطَّبع. ولكن لا يعلم الجانب المُسلِم أن نظرة الأقباط للموضوع مُختلفة. إذ يرون أنه تمَّ استدراجُها واستغلالُ مشاكلها معَ زوجها والوصولُ بها إلى نقطة تستحيلُ معها العودة. ويرونَ من جانبهم أنها تريدُ العودةَ إلى المَسيحيَّة. بينما لم يسمع أحد لوفاء نفسها. بل لم يُصدِّقوا جهات التَّحقيق. وتمَّ وضع فروض مُتخيَّلة وصلت إلى حدِّ أن روَّج أحدُهُم لشائعة أن "وفاء" قُتِلَت. ولم يكلِّف نفسَه مَشقَّة التَّأكُّد بدلاً من أن يُصيبَ قومًا بجهالة فيندمُ.

كل هذا لا يعني تبرير الغوغائيَّة من الجانبين. ولكنه مُحاولة لوضع تفسير لما حدث. فهل يفهمُ المُسلِمون الآن موقف الأقباط؟ وهل هذا التَّفسير النَّفسيُّ لموقف الأقباط يُقلِّل من غضبهم ويُصَحِّحُ ولو قليلاً من سوء التَّفاهُم؟

القُمُّص زكريّا بُطرُس

لا بُدَّ أننا مُتَّفِقون تمامًا على أن أيَّ تجريح في عقيدة الآخرين هو أمر غير مرغوب فيه على الإطلاق، ولكن هل ترحِّبون بِمُناقشة كل الأمور ذات الحساسية الخاصَّة بصراحة ووضوح؟ إذا كانت الإجابة "نعم" فلنتحدث إذًا عن القُمُّص "زكريّا بُطرُس".

في البداية يجبُ أن نوضِّح أن أسلوب هذا النَّوع من البرامج الذي يحمل سخريةً من عقيدة الآخرين لا يتَّفق وروح المَسيحيَّة، ولا يعبِّر حقيقةً عن الفِكر المَسيحيّ، وإن كان يُرضي شغفَ بعض المَسيحيِّين الذين يُعانون من عُقدة الاضطهاد ويُعانون من ظُلم إعلاميٍّ كبيرٍ، ولنعُد للوراء إلى ما قبل ظهور الفضائيَّات بسنوات، حيثُ عشنا كأقباط فترةً طويلةً مُهمَلين تمامًا من الإعلام الرَّسميّ، معَ الاكتفاء بإذاعة قُدَّاس العيد الذي دائمًا ما كان يُذاعُ قبل الموعد الذي تمَّ التَّنويه عنه، فتكون النَّتيجة هي أن ينتظر عدد كبير أمامَ التِّلفزيون في الموعد المُعلَن ليكتشفوا أن القُدَّاس قد أُذيعَ بالفعل منذُ أكثر من ساعة، وبالتَّالي يفوتهُم سماعه وعليهم الانتظار للعيد القادم، ويتكرَّر هذا السِّيناريو في كلِّ عيد حتَّى غلب الجميعَ شعورٌ عام بأن هذا كله مقصود ومُتَعَمَّد، حيثُ كان من المُعتاد وقتَها أن تتأخَّر كل البرامج -ما عدا نشرات الأخبار- عن موعدها؛ بسبب الفقرة الإعلانية، ولم يكُن مألوفًا قطُّ أن يُعرَضَ أيُّ شيء قبلَ الموعد المُحدَّد له .

ليس هذا فحسب بل كانت التَّهنئة دائمًا باسم العيد الخطأ، ففي عيد القيامة تأتي التَّهنئة على شاشة التِّلفزيون بعيد الميلاد والعكس، ولم يكُن واضحًا وقتها أن في نيَّة أحدهم تصحيح هذا.

وفي خطٍّ آخر مُوازٍ، كنَّا نسمع ونشاهد نقدًا للعقيدة المَسيحيَّة في القنوات الرَّسميَّة، ولم تخلُ الجرائد أيضًا من ذلِكَ، حيثُ المقالات الثَّابتة المُخصَّصة لنقد الكتاب المُقدَّس من خلال كُتَّاب مشهورين بهذا، البعض منهُم -للإنصاف- كان يقصد اليهود من خلال نقد التَّوراة، ولكن غاب عن ذهنه -ربما جهلاً أو عمدًا- أن اليهود والمَسيحيِّين يؤمنون بالتَّوراة نفسها، وبالتَّالي بينما هو يوجِّه النَّقد لليهود كان يصيبُ المَسيحيِّين أيضًا.

كل هذا ولا يجد المَسيحيُّ فُرصةً للرَّدِّ أو الدِّفاع عن عقيدته عملاً بحقِّ الرَّدِّ، كان الحوار دائمًا من طرف واحد، يكتفي دائمًا بنفسه، ويملك هذا الطَّرف وحده كلَّ قنوات النَّشر المُتاحَة. وعلى الأرصفة وفي المكتبات تجدُ كتبًا أخرى تهاجمُ المَسيحيَّة وأشهرها كتب الشَّيخ الدكتور "أحمد ديدات"، ويتم تداول تِلكَ الكُتب بينَ الطَّلبة المُسلِمين في المدارس أمامَ الطَّلبة المَسيحيِّين، بل وفي معرض الكتاب نفسه تجدُ دور نشر كثيرة تعرضُ كُتبًا تهاجم العقدية المَسيحيَّة وتضع لكُتبها عناوينًا مُثيرةً ومُستفزَّةً.

ولا ننسى أحاديث "الشَّيخ الشَّعراوي" الذي لم يدَّخر جهدًا في مُهاجمة العقيدة المَسيحيَّة، ومن خلال تلفزيون الدَّولة الذي هو ملك الجميع، ولم يكُن أمامك مَهرَب من سماعه ولو بالخطأ، أو بحكم انتظارك لمُشاهدة الفيلم العربي بعد انتهاء فقرته، وبعد ذلِكَ يتولَّى الطَّلبة المُسلِمون مُعايرة زملائهم المَسيحيِّين بما سمعوه من الشَّيخ الشَّعراوي وغيره، وكان البعض يُردِّد "يا مسيحي دقّ المسمار كل سنة وانت في النار".

ثمَّ ماذا عن الدُّكتور "مُحمَّد عمارة" والدُّكتور "زغلول النَّجَّار" الذي وصف "الكتاب المُقدَّس" في برنامج جماهيريٍّ شهير وعلى الهواء بأنه "الكُتاب المُكدَّس". هل راعى هنا -وهو شخصيَّة عامَّة-مشاعرَ الأقباط الذين يشاهدون البرنامج الذي يفترض أنه مُوجَّه للمِصريين عمومًا؟ هذا غير ما يكتبه كلٌّ مِنهُما بشكل مُستمر في الصُّحف المِصريَّة والذي يحملُ الكثير من الهُجوم على المَسيحيَّة.

في هذا الجوِّ غير العادل بالمرَّة، وتحتَ سمع ومرأى إعلام مُتحاز، يُعطي كلَّ الحقوق لطرف ويبخل على الطَّرف الآخر، لم يكُن أمامَ الأقباط سوى الصَّمت، معَ فشل كلِّ المحاولات الفرديَّة للنَّشر أو الرَّدِّ على ما كان يُنشرُ. زاد هذا من "عُزلة" الأقباط وتقوقعهم على أنفسهم، حتَّى ظهرت القنوات الفضائيَّة ثمَّ ظهر الإنترنت. فلم يكُن مُستغربًا أن يجد فيهما الأقباطُ فرصةً للتَّنفيس والرَّدِّ بأثر رجعيٍّ على كُلِّ ما فات من حظر ومنع.

هل يبدو هذا تفسيرًا مقبولاً لظهور القُمُّص "زكريًا بُطرُس"؟ في الواقع حتَّى لو لم يكُن هذا التَّفسير مقبولاً، فليس هناك سبب آخر. وإن كان هناك فرقٌ مُهمٌّ بينَ ما يحدثُ في الإعلام الرَّسميِّ وبينَ ما يفعله القُمُّص "زكريًا بُطرُس". فالإعلام الرَّسميُّ مِلك الجميع مُسلِمين وأقباط، ويُمَوَّل من دافعي الضَّرائب من الفريقين، وفي وقت ما لم يكُن مُتاحًا غيره، ومع ذلِكَ كان علينا احتمال ما نراه من تجاوزات في قنواته المختلفة. أمَّا برنامج القُمُّص "زكريًا بُطرُس" فيذاعُ من بلد غير عربيٍّ ومن قنوات غير عربيَّة ويمكنُ للمُسلِم الغيور أن يتجاهله تمامًا، بل ويستطيع أن يغيِّر القناة إلى قناة أخرى ليجد فيها ما يشفي غليلَه من برامج فضائيَّة تهاجمُ المَسيحيَّة أيضًا بشراسة.

فاتني أن أؤكِّد هنا مرَّة أخرى على أن أيَّ تجريح في عقيدة الآخرين هو أمر غيرُ مرغوب فيه على الإطلاق، فقط كنتُ أعرضُ الأسباب والدَّوافع التي أدَّت إلى ظهور بعض البرامج التي تغضب المُسلِمين، والتي أعارضُها أنا شخصيًّا؛ لأنني أعرف نتائجها جيدًا، وأعرف أن دائرة الفعل وردِّ الفعل لا تنتهي أبدًا، ودائمًا يظنُّ كلُّ فريق أن الآخر هو البادئ، وأن دفاعه عن نفسه مشروع، لنسمع مرَّةً أخرى عن برامج ومواقع تهاجمُ المَسيحيَّة كردِّ على القُمُّص "زكريَّا بُطرُس" الذي هو بدوره كان يردُّ على برامج مُشابهة ولكنها أقدم عُمرًا وهكذا، فتنتج سلسلة مُستمِرَّة من الفعل وردِّ الفعل. وفي النِّهاية أوضِّح أنه حينما رفض "البابا شنودة" هذه النَّوعية من البرامج لم يكُن من باب مُجامَلَة المُسلِمين، ولكن لإظهار الوجه الحقيقيِّ للمَسيحيَّة التي ترفضُ وبشدَّة أيَّ إساءة للآخر.

أقبـاطُ المهجـر

بينما يؤمن المُسلِمون بمفهوم "الأمّة الإسلاميّة" ويبذلون جهدًا واضحًا في سبيل ذَلِكَ، نجدُ أن هذا المفهوم لا نظير له عند المَسيحيّين بشَكل عام، فلا نسعى أبدًا لتكوين "أمّة مَسيحيّة" عملاً بقول السَّيّد المَسيح "مملكتي ليست في هذا العالم"، وبالتّالي لو دخلت أيُّ دولة ذات أغلبيّة مَسيحيّة حربًا معَ أيّ بلد آخر لا نعتبرها حربًا مُقدَّسةً، ولا نصفها بأنّها حربٌ دينيةٌ، بل ننظر إليها في إطارها السياسيّ فقط.

ولهذا السَّبب لا تجد في مِصر مثلاً مُظاهرات للأقباط احتجاجًا على ما يحدث لمَسيحيّي العراق، رغمَ إنه قد يتحرّك البعض دفاعًا عنهُم ولكن بدافع حقوق الإنسان وليس بحكم الانتماء الدّيني، تمامًا كما يحدثُ من تعاطف معَ الأكراد أو أيّ أقليات أخرى.

ولعلكم تلاحظون أن ما يحدثُ لمَسيحيّي العراق على يد العراقيين إنما حدث بعد الغزو الأمريكيّ، وفي ظلّ وجود الأمريكان، ولم يفعل لَهم الأمريكان شيئًا، مما يعني أن أمريكا ذاتها هنا لم تتصرف كدولة مَسيحيّة، وبالتّالي لا يجبُ عليها حماية المَسيحيّين في كلّ بقاع الأرض، وهذا بالطّبع يصدمُ كلّ من يتصوّر أن أمريكا هي حامي حِمَى المَسيحيّين، ويُصدمُ كلّ مَن ينسى أن أمريكا ليست دولةً دينيةً، حتّى لو قال بوش إنه يرى السَّيّد المَسيح في أحلامه، مما يُعطي انطباعًا مغلوطًا بأنها دولة دينيّة، فيكثر الحديث عن الإرهاب الأمريكيّ -وهذا حقيقيٌّ- الذي يُصوّره البعضُ على أنه إرهاب مَسيحيٌّ -وهذا غير حقيقيّ- ويصبح على الشّخص المَسيحيّ أن يظلّ في حالة دفاع مُستمر عن المَسيحيّة التي لا تُقِرُّ الحروب، ويصبح كلُّ مَسيحيّي العالم مُتورّطين، بينما

المخطط أمريكا فقط، ولأسباب تخصُّ مصالحها فقط، ولا تعود على المَسيحيّين بأيِّ فائدة.
أقول هذا ردًّا على من يتصوَّرون أن الأقباط يتمنُّون دخول أمريكا مِصر، سمعتُ ذَلِكَ من مُسلِمين كثيرين يعتقدون اعتقادًا قويًّا أن الأقباط يريدون ذَلِكَ حقًّا، وبالتَّالي ينظرون إلى الأقباط كخونة، وهذا ليسَ صحيحًا على الإطلاق، فأيُّ قِبطيٍّ أحمق هذا الذي يتمنَّى لِمصر مصيرًا مُشابهًا لمصير العراق! وأيُّ قِبطيٍّ أحمق هذا الذي يتمنَّى أن يرى مَسيحيِّي مِصر كمَسيحيِّي العراق! معَ كلِّ أسفي بالطَّبع لما يحدث هناك.

وإذا كان هناك من يسيء لقضيَّة الأقباط من الأقباط أنفسهم، سواء بالصَّخب الزائد عن الحدِّ، أو بالتَّلويح باسم أمريكا في مواقف الشِّدَّة أو أوقات التَّوتُّر، فهذا يفسد الأمور أحيانًا؛ لأنه:
• يُرَسِّخُ فكرة أن الأقباط يَستَقوُون بأمريكا، وينظرون لها نظرة المُخلِّص الذي سيأتي يومًا على حصانه -أو صواريخه- مُخلِّصًا الأقباط من ظُلم المُسلِمين في مِصر.
• يُرَسِّخُ في أذهان مَن هُم مُستعدُّون لذَلِكَ أن الأقباط خَونة وطابور خامس وعُملاء لأمريكا.
• يُسيء بهذا لقضيَّة الأقباط ذاتها كقضية مُحترمة، ويصوِّرها على أنها مفصولة أو منزوعة عن مشاكل المِصريين عمومًا، أو على الأقل يجعلها تبدو كذَلِكَ.
أعرف أن الإحساس بالظُّلم هو الذي يدفع البعض لهذا، إلا أنه كان يجبُ أن نضع في الاعتبار أن هذا لا يجب أن يصل إلى عموم الشَّارع المِصريِّ، مما يساهم في تأكيد حالة التَّباعُد التي بدأت في التَّزايُد بينَ المُسلِمين والأقباط، والتي سيكون لها مردودٌ على المُجتَمَع كله.

ولا أعرف لماذا تلتصقُ بالمسيحيِّين وحدهم تهمةُ الاستقواء بأمريكا، رغمَ أن فكرة اللجوء لدولة ما كوسيلة ضغط سياسيٍّ مُستخدمة كثيرًا، حتَّى من قِبَل الإخوان المُسلِمين الذين لوَّحوا كثيرًا باللجوء لأمريكا، وأيضًا يفعل ذَلِكَ العرب في قضيَّة فلسطين، صحيح أنها تخذلهُم دائمًا، لأنها تهتمُ بما يحقِّق مصالحها فقط، ولكنهُم يعتبرونها الأمل دائمًا .

من ناحية أخرى، فكرة "الأمَّة الإسلاميَّة" تجعل كثيرًا من المُسلِمين يتعاملون معَ الدول الإسلاميَّة كوطن آخر لَهم، وقد رأيت هنا في مِصر من يضع علم السَّعودية على سيارته، وبمفهوم الوطنية الذي أفهمه فأن هذا السُلوك يُعَدُّ خيانةً لوطن وحيد أعرفه يُدْعَى "مِصر".

أما عن أقباط المهجر، فيجبُ أن نحدِّد أولاً مَن هُم أقباط المهجر، ماذا تعرفون عنهُم؟ هل هُم فقط هؤلاءِ الذين تسمعون ضجيجَهُم من وقت لآخر؟ بالطبع لا، فهناك أقباط آخرون ليسوا نشطاء ولا يحزنون، هُم أناس عاديون جدًّا، ولكنهُم يتزعجون كُلما سمعوا عن حادثة وقعت لأقباط مِصر، فأهلهم وأسرهم وعائلاتهم وربما أبناؤهم أو آباؤهم ما زالوا فيها، وتهمُّهم سلامتُهم بالطَّبع. فماذا يجبُ أن يكون رَدُّ فعلهم إذا سمعوا أن أحدهم قَتَل أحد المُصلِّين داخل كَنيسة وهو يصلِّي؟ أو أن بعضهم هاجموا كَنيسةً وأحرقوها ودمَّروها، فإذا اعتصموا أمامَ السِّفارات في بلاد المهجر أو تظاهروا هل يعتبر هذا استقواءً بأمريكا؟ ألا يتظاهر المُسلِمون في العالم كله من أجل قضايا تخصُّ المُسلِمين وحدَهُم؟ هل هو استقواء أيضًا؟ من يستطيع أن يضع نفسه مكان الآخر سيعرف حتمًا الإجابة.

أما ما يحدث من بعض نشطاء أقباط المهجر من تصريحات أو أفعال تسيء لِمصر، فهذا من شأنه أن يُحرج الأقباط في مِصر كثيرًا، ويُظهرنا كما أسلَفْتُ

كعُملاء لأمريكا، بل والأسوأ أن أي خطأ منهم يرسُمُ صورةً مُعيَّنةً عن أقباط أمريكا تضعهم كلهم في الكِفَّة نفسها. ويرى البعض أنه من الممكن أن يكون لأقباط المهجر دور في التَّنديد أو المُطالبة برفع المظالِم، فمِصر هي وطنهم الأصليُّ الدَّائم، ولكن في إطار أننا مواطنون لهم حقوق مُهْدَرة وليس كأقلية مُضطهدة، حيث إن الأخيرة قد تأتي بنتائج عكسيَّة.

الإعلامُ والسّينما

حينما تستضيفُ البرامجُ الإعلاميَّةُ ضيفًا مَسيحيًّا للحديث عن قضايا الأقباط أو للحديث عن مُشكلة مُعيَّنة، يبدو ذَلِكَ جيدًا ومقبولاً، ولكنهم يكونون كمَن يُعِدُّ طعامًا جيدًا ويُفسده، هكذا تسير الأمور غالبًا، حيث إن اختيار هؤلاءِ الضُّيوف يكون غير مُوَفَّق من وجهة نظر كثير من الأقباط، فليس خفيًّا أن هناك شخصيَّات مَسيحيَّة غير مَحبوبة في الوسط القِبطيّ، ويشبِّهم الأقباط بيهوذا خائن المَسيح، ولا يرحِّب الأقباط بأن يمثِّلهم هؤلاءِ، في الوقت الذي يلحُّ الإعلام على استضافتهم في كثير من البرامج، ولا يخفَى عن الأقباط أنهم يقولون ما يريدُ الطرفُ الآخر سماعَه، بل وتصل الأمور في بعض الأحيان لحدِّ المُزايدة، وتكون النتيجة هي إحساس الأقباط بحالة إحباط، فالذي يظهرُ أمامهم الآن ويتحدَّث باسمهم مَسيحيٌّ، ومع ذَلِكَ فهو لا يُنصفهم، بل يأخذ اتجاهًا مُضادًّا، والشَّخصياتُ القِبطيَّة التي يرتاح الأقباط لها ويثقون بها لا يهتمُّ الإعلامُ بها كثيرًا، ولا يستضيفونها للحديث عن مشاكل الأقباط، وإذا حدث أحيانًا يكون في تِلكَ البرامج التي تعرف جيدًا كيف تُوَجِّه المُشاهِد لِما تريد، سواء بمناظرة الرَّجل مع ضيف آخر يمثِّل وجهة النَّظر التي يتبنَّاها البرنامج، أو بمُداخلات تليفونيَّة مُعدَّة سلفًا أو بالمونتاج، وهو السِّلاح الأشهر.

يُسبِّبُ هذا حرجًا كبيرًا للأقباط، حيثُ يُعطي انطباعًا كاذبًا للمُشاهد المُسلِم بأن هذا هو رأي الأقباط، ويكفي أن يسمع أحدُهُم هذه المقولة من صديق مُسلِم:

-هوَّ أنا اللي بقول؟ ما هو واحد منكم اللي قال كده في التِّلفزيون.

أن سوء اختيار الضَّيف في وسائل الإعلام هو أحد المشاكل غير المطروقة التي يُعاني منها الأقباط. فهذا يشوِّه صورة الأقباط لدى المُسلِمين، ويزيدُ من حالة الشَّحن والتَّعبئة السَّلبية.

وفي المقابل، قلَّما يقدِّمُ الإعلامُ نماذج إيجابيةً قِبطيَّة تساهمُ في توضيح المفاهيم بشكل سليم، فقط حينما يقع حادث طائفيٌّ يأتون بكلِّ الأصوات الصَّاخبة من الطَّرفين لتتحادث، ولا يسمع أحد لأحد، أو يأتون بنماذج ضعيفة تناقشُ قضايا حساسة، ربما بقصد أو بدون قصد.

وفي الآونة الأخيرة بدأت نغمة جديدة تظهر في الإعلام، وهي أن يأتي أحدُهُم في أحد البرامج ليتحدَّث عن رفض التَّطرُّف والعنف من الجانبين، وهي جملةٌ غيرُ مُريحة، تستخدم بهدف حفظ توازنات مُعيَّنة، لكنها توحي بأن هناك جماعات إرهابيَّة مَسيحيَّة، وهذا غير صحيح على الإطلاق، فأقصى ما سيفعله المُتطَرِّف المَسيحيُّ -هذا إذا صحَّ أن نطلق على المُتزَمِّت المَسيحيِّ كلمة مُتطَرِّف- هو التَّحفُّظ الشَّديد في تعامُله معَ المُسلِمين أو مُحاولة تجنُّبهم، أو الدُّخول في مُداخلات ساخنة على الإنترنت، وأبدًا لن تجدوه حاملاً سلاحًا ليقتل به من يخالفونه العقيدة.

للإعلام أخطاءٌ وخطايا كثيرة في مسألة إثارة الفُرقة والنَّعرات الطَّائفية، يحبُّ دائمًا أن يغازل الأغلبية ويتعمَّد شحنهم كثيرًا، ويقدِّم بسهولة دروسًا جيدةً في انتقاد المَسيحيِّين على القنوات المُختلفة. وفضلاً عن كون الأقباط مُجتمعًا مُغلقًا وغامضًا لكثير من المُسلِمين، يأتي الإعلام لتشويه صورتهم وتقديم معلومات مغلوطة تتسبَّب في الكثير من المشاكل، وإن كنتُ أرى بوادر طيبة لبعض القنوات، ولكنها كانت صادمة لكثير من المُسلِمين؛ لأنهُم فجأة

صاروا يرون قِسًّا أو أسقفًا على الشّاشة يحدّثهم عن العقيدة المَسيحيَّة، وهذا غيرُ معتاد، حتَّى أن بعضهُم اعتبر هذا تبشيرًا.

أما عن السِّينما فسأتحدَّث فقط عن موقف إيجابيّ؛ لأن ما هو سلبي منها يعرفه الجميع، فبعد فيلم "حسن ومرقص" تحدَّثتُ إلى أحد الأصدقاء فقال لي أن الفيلم لفت انتباهه إلى تدهور العلاقة بينَ المُسلِمين والمَسيحيّين، وأنه لم يكُن يتصور أن الأمور ممكن أن تصل إلى هذه الدَّرجة التي صوَّرها الفيلم، وقال أن الفيلم جعله يقرِّر أن يحسن علاقته بكلّ المَسيحيّين الذين يعرفهُم، فشكرًا لصُنَّاع الفيلم.

السّلامُ عليكُم

لماذا سبَّبت تحيَّةُ "السَّلام عليكُم" كلَّ هذا الضَّجيج؟
رغم دِلالتها اللفظيَّة التي تحملُ معنى السَّلام، إلا أنها كثيرًا ما تكون سببًا في حدوث توتُّر بينَ المُسلِمين والأقباط. فحينما يقول شخص مُسلِم لشخص مَسيحيّ "السَّلام عليكُم"، ويأتيه الرَّدُّ "أهلاً" أو "سلام"، فحتمًا سيسبِّب له هذا شعورًا بالضِّيق وربما التَّحفُّز، وسيقول بينه وبين نفسه: "أحييه بالسَّلام ويرفضه". وعلى الجانب الآخر حينما يقول شخص مَسيحيٌّ لشخص مُسلِم "صباح الخير" -وهي تحيَّة عامَّة وليست مَسيحيَّة- فيسمع الرَّد "وعليكُم السَّلام"؛ فيسبِّب له ذَلِكَ أيضًا شعورًا بالضِّيق، وسيقول بينه وبين نفسه: "وهل الخير مرفوض؟"، وبين هذا وذاك تتولَّد مشاعر سلبيَّة كثيرة، رغمَ أن النِّيَّة في الأصل هي "السَّلام".

ومن جانبهم يرى الأقباط أن المُسلِمين يفرضون عليهم هُويَّتهم الدِّينية، يبدو ذَلِكَ ليسَ من مُجرَّد إلقاء تحيَّة تحمل معنًى جميلاً كالسَّلام، ولكن من طريقة فرضها، ومن الإصرار على اختزال كل التَّحيَّات في تحيَّة واحدة هي التَّحيَّة الإسلاميَّة. يشعر الأقباط أن المُسلِمين يهجرون كل ما هو "مُشتَرَك" -مثل التَّحيَّات العامَّة- إلى كلّ ما هو إسلامي، بل أن البعض إذا قلتَ له صباح الخير أو مساء الخير يردُّ بنبرة حادَّة "وعليكُم السَّلام". فإذا كنتَ تعني السَّلام حقًّا فلماذا لا تعبِّر رُوحك عنه؟ لماذا تقرنه بالغضب وأنت تُلْقِيه؟ لماذا يحوِّلها البعض إلى تحيَّة جافَّة، بينما قليل من الود معها سيريح الجميع، وسيجعلها مقبولةً من المَسيحيِّين قبل المُسلِمين؟ فليست المُشكلة في الحروف ولا الكلمات، إنما المشكلة كلها في أن تجعلني أشعر أنك تريدُ السَّلام حقًّا.

يختلف الموقف معي بينَ أن أكون أنا المتَّصل تلِفونيًّا بشخص ما فيبادرني بتحيَّة "السَّلام عليكُم". وبين أن يكون ذَلِكَ الشَّخص هو المتَّصِل فيبدأ تليفونه بنفس التَّحيَّة: "السَّلام عليكُم". هل يبدو هذا غريبًا؟!

تفسير ذَلِكَ ببساطة أنه حينما يبدأ هو الاتصال فطبيعي أن يبدأ هو التَّحيَّة، ويجب هنا أن أردَّ تحيَّته بما يناسبُها. أمَّا حينما أكون أنا المتَّصل فهذا يعني أنني أنا من سيبدأ بالتَّحيَّة، وأكونُ مُنتظرًا سماع كلمة "ألو" لألقيها. فإذا وجدتها قد استُبْدِلَت بـ"السَّلام عليكُم"، أجدني قد ارتبكت قليلاً؛ إذ يكون عليَّ أن أدرك أنه يجب رَدُّ التَّحيَّة لا إرسالها، وقد لا يسعفني رَدُّ الفعل السَّريع فيحدث أن ألقي تحيَّتي الأخرى التي كنتُ أنويها، وربَّما يزعجُ هذا مُحَدِّثي ويجعله يتصوَّر أنني أرفض تحيَّته. ولكن هذا فعلاً ما يحدثُ معي، طبعًا لا أطلب من أحد التَّنازل عن تحيَّته. ولكن فقط أفسِّر ما قد يُساءُ فهمُه أحيانًا.

من المهم كذَلِكَ توظيف التَّحيَّة حسبَ الموقف والتَّوقيت والمكان. فمثلاً إذا قابلت أحدًا في الصَّباح فلن أرى أرقَّ من "صباح الخير"، وفي أثناء اليَوم إذا قابلتُ شخصًا مُسلِمًا، ما المانع -وأنا قِبطيٌّ- أن أقول له: "السَّلام عليكُم"، أو أردَّ تحيَّته بردِّها المناسب ما دام سيسعده ذَلِكَ.

ومِن جانبي لا أنكر أن موقفي اختلف بعدما تفهَّمت ما يشعر به المُسلِمون إذا لم تردَّ تحيَّة "السَّلام عليكُم" بردِّها المُناسب. وفي قرارة نفسي قررت إلا أسبِّب ضيقًا لأحد بسبب أمور يمكن أن تمرَّ ونتعايش معها، خصوصًا وأننا بالفعل نعيشُ في ظلِّ ثقافة إسلاميَّة. والغريب أنه بعد أن توصَّلت لهذه القناعات قرأت في موقع "إسلام أون لاين" تعليقًا من أحد قرائه كان صادمًا

لي، وهو أنه لا يصحُّ أن نقول لقِبطيٍّ السَّلام عليكُم ورحمة الله وبركاته؛ حيث إن الرَّحمة في نظره لا تجوز سوى على المُسلِم!

أما عن التَّهنئة في الأعياد فقد دُهِشتُ عندما عرفتُ أن بعض المُسلِمين لا يهنِّئون المَسيحيِّين إذا كان "عيد القيامة المجيد"، بينما يهنِّئونهم في "عيد الميلاد المجيد". طبعًا عرفت السَّبب فيما بعد: حيث إن المُسلِم يؤمن بميلاد السَّيِّد المَسيح ولا يؤمن بموته وصلبه وقيامته حسب المفهوم المَسيحيّ. أثار هذا دهشةً كبيرةً لديَّ، ففكرة أن التَّهنئة أو المُعايدة "على حسب" أمر غريب جدًّا في نظري، فالذي أفهمه هو أنها مُجاملات اجتماعيَّة مُتبادلة، ولا علاقة لها بكونك تؤمن بما أحتفلُ به أم لا.

وفي المقابل يجبُ أن يفهمَ من يفكِّر هكذا أن المَسيحيِّين لا يؤمنون بطبيعة الحال بالأعياد والمُناسبات الإسلاميَّة المُختلفة، ولا يعني هذا على الإطلاق أن "يستحرم" أيُّ مَسيحي أن يهنِّئ المُسلِم بكلِّ أعياده، بل نستخدم أحيانًا التَّعبيرات الإسلاميَّة نفسها مثل "رمضان كريم"، ولا يعني هذا أن إيماني المَسيحيَّ قد اهتزَّ، فأنا أستخدمها في سياقها الاجتماعيّ، كما يفعل أيضًا بعض المُسلِمين حينما يهنِّئون شخصًا مَسيحيًّا بعبارة "ماري كريسماس"، ويظلون مُسلِمين بعدها. مثل هذه التَّعبيرات المُتبادلة تُشيعُ جوًّا من الودِّ أكثر من مُجرَّد التَّهنئة التَّقليديَّة، فحينما تهنِّئ أحدًا بعبارة تخصُّ عقيدته سيكون لهذا وَقعٌ أجمل، وسيسعد بها أكثر، أو كما يقول نزارُ قبَّاني:

خرجتُ اليَومَ للشُّرفة
على الشُّباك جارتنا المَسيحيَّة
تُحيِّيني
فرحتُ

لأن إنسانًا يُحيِّيني
أليمَ الدِّينْ كلُّ الدِّين
إنسانًا يُحيِّيني؟

القسم الثاني
مفاهيم مسيحية

مُقدّمــة

قال لي أحدُ الأصدقاء المُسلِمين:

-ابن خالتي راح يعَزّي واحد زميله في الكنيسة، فِضِلْنا كلنا نسأله هي الكنيسة دي شَكلها إيه بقى؟ يعني أنا وقتها بقيت أقوله أنا نِفْسي أدخل كنيسة أشوف الناس دول، ولما أعَدّي على كنيسة يبقى عندي تطلُّع أو فضول أشوف فيها إيه من جُوّا.

ثمَّ قال صديقي بعدها:

-ده يوضَّح لَك قد إيه إنتوا عالم مجهول بالنِّسبة لنا.

ومن أجل صديقي هذا، ومن أجل إلا يظلّ الأقباط "عالَمًا مجهولاً" رغمَ الجوار ورغم الحياة المشتركة والهُموم المُشتركة في وطن واحد، أكتب هذا القِسم الذي يُسَلِّط قليلاً من الضَّوء على ما يريد المُسلِمون أن يعرفوه عن الأقباط، دونَ أن أدخل في تفاصيل العقيدة المَسيحيَّة، أكتب فقط من جانب اجتماعيّ وليس من جانب عقائديّ، أكتب عن أشياء يشاهدها المُسلِمون ولا يفهمونها، وتمثِّل لهم طلاسم غامضةً، مثل شَكل الكَنيسة المُستَغرَب دائمًا، والذي يُشبه القلاع بالنِّسبة لكثير من المُسلِمين، وعن بعض الأعياد والمناسبات التي لا يعرفون عنها شيئًا سوى أن المَسيحيِّين "أجازة النهارده عشان عندهم عيد"، أكتب أيضًا عن ملابس الكهنة، ولماذا هي سوداء؟ وهل هي سوداء بشَكل مؤقَّت حتَّى يرحل العرب من مِصر؟! وأكتب عن أشياء إن بدت لكم يزول عنَّا الغُموض، وربما يجعلنا هذا أكثر اقترابًا وأقلّ اغترابًا.

ولأنني قِبطيٌّ أرثوذكسيٌّ فستجدني أتحدَّث عن كلِّ ما هو أرثوذكسي فقط، لا يعني هذا تجاهُل بقية الطَّوائف، ولكن نظرًا لأنني أتحدَّث من منظور اجتماعيّ بسيط وليس عقائديًّا، فوجدت أن التَّطرُّق للتَّفاصيل والفروق الطَّائفية سيُبعدني عن هدفي، الذي هو توضيح وشرح ما يراه المُسلِمُ بالفعل ويسمع عنه ولا يعرف عنه إلا القليل جدًّا، وفي أحيان كثيرة ينعدم هذا القليل.

الكنيسة

معنى كلمة كَنيسة:

كلمة الكَنيسَة أصلها سرياني "كنوشتو" وتعني جماعة، وفي العبرية "كنيسي" أي مَجمَع، ولهذا يُطلق على مجلس الشّعب الإسرائيلي "الكِنيست". وفي اليونانية "إكلِيسيا(ECCLESIA) ": أي مَجمَع أيضًا، وفي اللُّغة العربية "البَيْعَة" من المُبَايَعَة: لأن السَّيِّد المَسيح ابتاع (اشترى) المؤمنين بدمه.

الشَّكلُ المعماريُّ:

الكَنيسة تُبنَى على شَكلِ سفينةٍ تشبيهًا لها بسفينة نوح، حيثُ تُمثِّل للمؤمن سفينةَ نجاةٍ لتنقذَه من الغرقِ في الخطايا، وتوصِلَه لميناء الخلاص. وتقسَّم الكَنيسة إلى ثلاث خَوَارِس (جمع خُورَس ومعناه قِسم) :

-خُورَس الشَّعب: وهو يمثِّل أكبر جزءٍ في الكَنيسة، وبه الأعمِدَةُ التي تمثِّلُ إمَّا الأربع بشائر؛ أي الأناجيل (مَتَّى ومُرْقُس ولُوقا ويُوحَنَّا) في حالةِ أربعةِ أعمدةٍ، أو الاثني عشر تلميذًا في حالِ الاثني عشر عمودًا.

-خورس الشَّمامِسَة: وهو في مُستوى أعلى قليلاً من خورس الشَّعب، ومساحته صغيرة.

-الهيكل: وهو الخورس الثالث، وهو أقدس مكان بالكَنيسة ولذَلِكَ يسمَّى "قدس الأقداس"، ولا يدخله أحد بالحِذاءِ لقداسته، وفي الحائطِ الشَّرقيِّ منه توجد الشَّرقية، حيثُ تكون الصَّلاة في اتجاه الشَّرق، وهي عبارة عن نصف دائرة.

ولذَلِكَ تظهر الكَنيسة من الخارج بشَكلٍ معماريٍّ مُميّزٍ، وليس مقصودًا منه أن تكون على شَكل قلعةٍ كما يتصوَّر البعض، وهذا ما نراه في كلّ كنائس العالم لا في مصر وحدها.

عملُ الكَنيسةِ:

هو توعيةُ الناسِ دينيًّا وتقريبهم من الله، وتعريفهم بدينهم وتعاليمِهِ من تسامُح ومَحبّة وعدم رَدّ الإساءة بإساءة، والصَّلاة من أجل جميع الناس دون تمييز، الكَنيسة تصلّي من أجل سلام العالَم، ومن أجل مياه الأنهار، ومن أجل أن يَعُمَّ الخير والرَّخاء مِصرنا الحبيبة، كما تصلّي من أجل الفقراء والأرامل والأيتام، ومن أجل مَن هُم في ضيق، وكل من يطلب أن تصلّي من أجله، كما تصلّي من أجل الذين رحلوا، وتطلب لَهُم الرَّحمة من الله. فالكَنيسة عملها الأساسيُّ وشغلها الشّاغل هو الصّلاة، وحَثُّ المؤمنين على الحياة في مخافة الله، وتنفيذ وصاياه، والحثُّ على التَّوبة وترك الخطايا.

القُدَّاسُ:

وهو الصَّلاة الجماعيّة التي تقامُ في الكَنيسة، والذي تتم فيه ممارسة طقس مُهِمّ، وهو "سر التَّناول"، ويقوم فيه الكاهن بمساعدة الشَّمامسة، وفيه تستخدم الألحان الكنسية معَ الصلوات، كما يستخدم البخور في القُدَّاسات، كرمز لصعود صلواتنا أمامَ الله، يتخلل القُدّاس العِظَة التي يلقيها الكاهن على الشَّعب. أمَّا الصلوات الفرديّة، فهناك سبع صلوات يوميّة يجبُ على المَسيحيّ الأرثوذكسيّ أنْ يصلّيها.

الدَّورُ الاجتماعيُّ:

للكَنيسة دورٌ اجتماعيٌّ مُهمٌّ يتمثَّل في: تَفَقُّد الشَّعب وحل مشاكِلاتِهم والاهتمام بجذبِهم للكَنيسة، وزيارة المرضى، ومساعدة الأسر الفقيرة، واستقبال العزاء في قاعات المناسبات، وعمل فصولِ محوٍ للأميَّةِ في بعض الكنائسِ، ورعاية ذوي الاحتياجات الخاصَّة، وتربية النشء والشباب من خلال مدارس الأحد -وهي فصول رُوحيَّة خاصَّة بالتعاليم المَسيحيَّة مُقَسَّمة حسب سنوات الدِّراسة والفئات العُمريَّة- ويطلق على القائمين بالتعليم هناك اسم "خادم"، وجمعها "خُدَّام" بضمِّ الخاء، كما توجد في بعض الكنائس رعاية خاصَّة للصُّم والبُكم، وكثيرٌ من الأنشطة الاجتماعية .

المُجتَمَعُ الكَنَسيُّ:

رغم أن دور الكَنيسة الأصليَّ هو الصَّلاة والعبادة، إلا أنه لأسباب كثيرة ومُتراكمة ظهر للكَنيسة دورٌ اجتماعيٌّ كبير، فالكَنيسةُ بجانب عملها الرُّوحيِّ أصبحت تقوم بدور النادي الاجتماعي، الذي تُمَارَسُ فيه أنواعٌ كثيرة من الأنشطة، وبالتَّالي يحدث تعارُف بينَ الأسر المَسيحيَّة، كما أن كل كَنيسة تخدم المَسيحيِّين الذين في نطاقها الجغرافيِّ، ويُطلَق على جمهور كلِّ كَنيسة اسم "الشَّعب"، وكلُّ كَنيسة لها شعبُها الذي يُكوِّنُ المُجتَمَع الخاصَّ بها، وبطبيعة الحال لا يعني هذا وجود فصل تامّ بينَ شعب كَنيسة وأخرى، بل هناك تداخُل طبيعيٌّ يجعل المُجتَمَع الكنسيَّ مُجتمعًا كبيرًا.

الأسـرارُ الكنسيّـة

ومن مهامِ الكَنيسة أيضًا مُمارسة طقوس أخرى نُسمّيها "أسرارًا"، والتي تتمُّ بواسطة الآباء الكهنة، وتسمَّى أسرارًا؛ لأن كلمة سر في الإيمان المسيحيّ تعني نعمة سريَّة (غير منظورة) بواسطة مادة منظورة، وأسرار الكَنيسة سبعة وهي:

1- سرُّ الزِّيجة: أي الزواج، وهو صلاة الإكليل.

2- سرُّ الكهنوت: ومن خلاله يتمُّ ترسيم الكهنة.

3- سرُّ التَّوبة والاعتراف: الاعتراف لله بخطايانا والتَّوبة له أمامَ الأب الكاهن الذي يكون بمثابة مُرشد رُوحيّ.

4- سرُّ التَّناول: وهو الطَّقس الرَّئيسيُّ للقُدَّاس، ويتم باستخدام "القُربان"، وهو خبزٌ خالٍ من الخميرة يُخبَزُ في الكنائس، و"الأباركة"، وهو عصير العنب المُختَمِر، يُعَدُّ في الأديرة خِصِّيصًا لسرِّ التَّناول، ولا يجوزُ شربه في غير ذَلِكَ، ويتمُّ التَّناول بأنْ يعطي الكاهنُ للشَّخص المُتقدِّم للمُناولة قطعةً صغيرةً جدًّا من القُربان معَ قطرة صغيرة جدًّا من الأباركة، ويجبُ أن يسبق التَّناولَ صومٌ انقطاعيٌّ.

5- سرُّ مسحةِ المرضى: من خلال دهن المريض بزيت خاصٍّ نقيّ يصلّي عليه الكاهن، ويهدف إلى طلب الشِّفاء من الله.

6- سرُّ المَعْمُودِيَّة: سرٌّ يحصل به المُعَمَّدون على نعمة الميلاد الجديد أي الميلاد الرُّوحي، ويتم بالتَّغطيس في ماء المعموديَّة .

7- سرُّ الميرون: و"الميرون" كلمة يونانيَّة معناها زيت عطري، وهو زيت مُقدَّس يُدهَنُ به المُعَمَّدون أثناء التَّعميد، وهو تركيبة ثابتة ومعروفة من القرون الأولى، ويتم تجديدُها بإضافة كميَّات جديدة إلى القديمة .

الأصوامُ والأعيـادُ

لن أنسى دهشة زميل مُسلِم حينما كان يطلب لنفسهِ فنجان شاي ذات يوم، وسألني إن كنتُ أريد أشرب شايًا معه، وقتها أخبرته أنّي صائم فقال:

-ده شاي، يعني مفهوش لبن ولا أي حاجة مُفْطِرة.

فقلتُ له إنني ممتنع عن الأكل والشُرب كما تصومُ أنت في رمضان، فأبدى دهشةً وقال:

-تصوَّر دي أول مرَّة في حياتي أعرف إنكم ممكن تصوموا بدون أكل أو شرب زيّنا، أنا فاهم إنّ الصيام بتاعكم متاكلوش فيه لحوم أو أي حاجة فيها رُوح.

فأخبرته أن هذا صحيح، بجانب أنه يجب الامتناع عن الأكل والشُرب فترة من الوقت، وأن يبدأ الامتناع عن الطعام -أو الإمساك كما تسمُّونه- من الثانية عشر بعد منتصف الليل؛ أي معَ البداية الفعليَّة لليوم، حتَّى السَّاعة الثَّالثة بعد الظُّهر، وتمتدُّ إلى السَّاعة الخامسة مساءً في الصَّوم الكبير.

والصِّيامُ المسيحيُّ بالفعل يجمعُ بينَ أن تصوم منقطعًا عن الطَّعام فترةً مُعيَّنةً من الوقت، وبين تغيير نَوع الطَّعام نفسه إلى أكل "صيامي"؛ أي نباتي دون أيِّ نَوع من اللحوم أو أيِّ منتجات حيوانية، كالألبان والجبن والسَّمن وهكذا، ويُستثْنى السَّمك في بعض الأصوام من باب التَّخفيف، فيما عدا الصِّيام الكبير الذي يُعادلُ في المكانة لدى الأقباط الأرثوذكس مكانة رمضان عند المُسلِمين.

وقد لا يلتزم البعض بالفعل بالامتناع عن الطَّعام ويكتفي بالأكل الصِّيامي، ولكن هذا من الناحية الدِّينية يُعَدُّ تقصيرًا، أمَّا الشَّكل الصَّحيح فهو كما ذكرت.

أما عن أصوام الكَنيسة القِبطيَّة الأرثوذكسيَّة ومُدَدها فهي:

صومُ الميلاد: ويبدأ في ٢٥ نوفمبر، ومُدَّتُه ثلاثة وأربعون يومًا، وينتهي بعيد الميلاد المجيد، حيث إن فكرته هي الصَّوم والاستعداد لميلاد السَّيِّد المَسيح.

صومُ يونان: أو صوم أهل نينوَى، وموعده مُتَغَيِّر، وهو ثلاثة أيام فقط، كتذكار لبقاء يونان (يونس) في بطن الحوت ثلاثة أيام.

الصَّومُ الكبيرُ: وموعده مُتغيِّر من عام لآخر، ومُدَّتُه خمسة وخمسون يومًا، وينتهي بأسبوع الآلام، ثمَّ عيد القيامة المجيد، وهو أهمُّ وأقدمُ صوم؛ لأننا نستعد به لقبول الخلاص الذي تمَّ بالفداء وقيامة السَّيِّد المَسيح من الموت، حسب الإيمان المسيحيّ.

صومُ الرُّسلِ: موعده مُتغيِّر ومُدَّته مُتغيِّرة أيضًا من عام لآخر، وفيه نصوم كما صام رُسلُ السَّيِّد المَسيح بعد صعوده إلى السَّموات.

صومُ السَّيِّدة العذراء: ويبدأ في ٧ أغسطس، ومُدَّتُه خمسة عشر يومًا، ونصومه كما صامه تلاميذ السَّيِّد المَسيح لرؤيتهم صعود جسد السَّيِّدة مريم العذراء للسَّماء.

الأربعاء والجمعة من كلِّ أسبوع: الأربعاء تذكار خيانة يهوذا واتفاقه معَ اليهود على تسليم السَّيِّد المَسيح لهم، والجُمعة تذكار موتِهِ على الصَّليب.

ويلي الصيام دائمًا عيد أو مناسبة تذكارية، وهي الأعياد المَسيحيَّة التي يراها المُسلِمون، كما أنها تكون إجازات رسميَّة للأقباط، وهي:

عيد الميلاد المجيد: ويكون يوم ٧ يناير، وهو ذكرى ميلاد السَّيِّد المَسيح جسديًّا.

عيد الغطاس: ويكون يوم ١٩ يناير، وهو ذكرى تعميد السَّيِّد المَسيح بالتغطيس في نهر الأردن على يد يوحنا المعمدان (يحيى)، واعتاد الأقباط فيه أكل القصب والقلقاس نظرًا لارتباطِهما بالماء (ماء المعمودية)؛ فالقصب به ماء كثير والقلقاس يغرق بماء كثير، وهي عادات اجتماعية ولكنها تحمل رموزًا تناسب الحدث.

أحد الشَّعانين (السَّعف): موعده مُتغيِّر، وكلمة "شعانين" مُشتقَّة من الكلمة العبرية "أوشعنا"؛ أي خَلِّصنا، ويسمَّى أيضًا أحد السَّعف، وفيه يحمل المَسيحيُّون سعف النخيل كما فعل أهل أورشليم حينما خرجوا لاستقبال السَّيِّد المَسيح.

خميس العهد: موعده مُتغيِّر، وهو تذكار ليوم العشاء الأخير للسَّيِّد المَسيح معَ التَّلاميذ وغسله لأرجلهم، وفيه أيضًا قام السَّيِّد المَسيح بتأسيس "سر التَّناول" الذي تمارسه الكَنيسة في طقس القُدَّاس.

عيدُ القيامة المجيد: موعده مُتغيِّر، وهو تذكار قيامة السَّيِّد المَسيح من الموت في اليَوم الثالث حسبَ الإيمان المَسيحيّ.

بجانب أعياد أخرى ومُناسبات يتمُ الاحتفال بها كنسيًّا فقط دون أيِّ مظاهر اجتماعيَّة.

أسبـوع الآلام

أسبوع الالام هو أسبوع "البصخة المُقدَّسة". وكلمة بصخة أو الفِصْح تعني "عبور". وهي نفس أصل كلمة"PASS" . التي تعني "عَبَرَ" بالإنجليزية. وأصلها عند اليهود عبور البحر الأحمر إلى أرض كنعان هربًا من فرعون. بينما يمثل في المَسيحيَّة العبور من الظُّلمة إلى النُّور، ومن موت الخَطِيَّة إلى الحياة الأبديَّة. وهذا بفعل موت المَسيح وسفك دمه على الصَّليب لأجلنا. ويبدأ أسبوع البصخة بنهاية قُدَّاس أحد السَّعف (تُنْطَق زَعَف بالعاميَّة). الذي يمثِّل ذكرى دخول السَّيِّد المَسيح مدينة أورشليم. حيثُ خرج الشَّعب لاستقباله كملك حاملين سعف النَّخيل وأغصان الزيتون. لذَلِكَ يذهب المَسيحيُّون إلى الكنائس في ذَلِكَ اليَوم وفي أيديهم سعف النخيل المُزيَّن بالورود. كما يصنعون منه أشكالاً فنيةً جميلةً منها ما هو على شَكل صُلبان أو خواتم أو على شَكل قلوب. وبنهاية يوم أحد الشَّعانين تقامُ صلاة جنائزيَّة (الجناز العام)، ثمَّ يُرَش كل الشَّعب بَعدَها بالماء المُصَلَّى عليه. وسرُّ هذا أنه في خلال أسبوع الالام إذا مات أحد من الشَّعب لن تصلِّي عليه الكَنيسة "صلاة الجناز"، ثمَّ تتشح الكَنيسةُ بالسَّواد إيذانًا ببدء أسبوع الالام الذي ينقطع فيه المَسيحيُّون للصَّلاة، وتكون جميع طقوس الكَنيسة بالألحان الحزينة.

وتعتبر الكَنيسة أسبوع الالام أقدس أيام السَّنة. فهو يمثِّل معايشة للأيام الأخيرة في حياة السَّيِّد المَسيح على الأرض، والتي فيها قاسَى الالام من اليهود وجند الرُّومان. هو مُحاكاة رحلة آلامه يومًا بيوم، تلك الرحلة التي تصاعدت حتَّى بلغت ذروتها على خشبة الصَّليب. ويُختَمُ هذا الأسبوع بيوم الجُمعة

العظيمة (الحزينة) التي صُلِب فيها السَّيِّد المَسيح، وتكون الصَّلاة في ذَلِكَ اليَوم النهار كله.

يسبق الجمعة العظيمة يوم خميس العهد الذي التقى فيه السَّيِّد المَسيح معَ تلاميذه في العشاء الأخير، وأنبأهُم بخيانة يهوذا بقوله: "واحد منكم يُسلمني"، وبعد ذَلِكَ غسل السَّيِّد المَسيح أرْجُلَ تلاميذه ليعلِّمَهُم الاتِّضاعَ وبذل النفس، وإذ كان اليهود في تِلكَ الأيام يحتفلون بعيد الفِصْح، حيثُ يذبحون ويأكلون خروف الفِصْح إحياءً لذكرى الخروج من مِصر، والتحرُّر من عبودية فرعون، لذَلِكَ فقد أراد السَّيِّد المَسيح أن يبطل ذَلِكَ باعتباره كان رمزًا لما سيقدمه هو نفسه من ذبيحة كَفَّارِيَّة، فقدَّم لهم خبزًا وكأسًا وباركهما، وقال لهم: "هذا هو جسدي ودمي الذي يُبْذَل عنكم"، وأسَّس بذَلِكَ "سر التَّناول".

وبعد الجُمعة العظيمة يأتي سبتُ النُّور أو سبت الفرح، حيثُ تمَّ الخلاص -كما تؤمن- وبلغ ذروته بقيامة السَّيِّد المَسيح مُنتصرًا على الموت ومُتَمِّمًا الخلاص، ثمَّ يكون يوم الأحد التالي هو عيد القيامة الذي فيه يفرح جميع المَسيحيِّين بقيامة السَّيِّد المَسيح من بين الأموات، حيثُ تتحقَّق نبوءة داوُد:

«لأنكَ لَنْ تَتْرُكَ نَفْسِي فِي الْهَاوِيَةِ وَلاَ تَدَعَ قُدُّوسَكَ يَرَى فَسَادًا.»

فهتفُ مُنتصرًا:

«أَيْنَ شَوْكَتُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ غَلَبَتُكِ يَا هَاوِيَةُ؟»

أي إنه داس الموت بالموت، وبهذا المعنى نُرَتِّل أيضًا:

المَسيحُ قامَ مِن بينَ الأموات

ووطأ الموتَ بالموت

ووهبَ الحياةَ للذين في القُبور

وتكون تحيَّة العيد بينَ المَسيحيِّين هي: "أخرستوس آنيستي": أي "المَسيح قام" باللغة اليونانية، ويكون ردُّها: "أليسوس آنيستي": أي بالحقيقة قام.
هو أسبوع دسم حقًّا ومشبع جدًّا على المستوى الرُّوحيِّ والنفسيِّ والفنِّي أيضًا لروعة ألحانه. وليس خفيًّا أن ألحان هذه الفترة كلها هي من أهم وأروع الألحان الكنسيَّة وأعذبها على الإطلاق، والتي يصل بها المَسيحيُّون إلى أعلى درجات الرُّوحانية .

ومن العادات الشَّهيرة المرتبطة بأسبوع الآلام ويمارسها البعض -ليست مُلزِمة- ارتداء الملابس القاتمة بالنِّسبة للسَّيدات باعتباره أسبوعًا حزينًا، والتوقُّف عن مشاهدة التِّلفزيون. وفي ليلة أربعاء البصخة -أي من مساء الثلاثاء- يمتنعون عن مدِّ اليد بالسَّلام؛ تجنُّبًا للتشبُّهِ بيهوذا الخائن الذي اتفق على تسليم السَّيِّد المَسيح في مثل ذَلِكَ اليَوم، وكانت الإشارة التي اتفق معَ الجنود عليها هي أن يصافح السَّيِّد المَسيح ويُقَبِّلَه. ولأن السَّيِّد المَسيح وهو على الصَّليب طلب أن يشرب فسقاه الجنود خلاً بدلاً من الماء، لذَلِكَ وفي نهاية يوم الجُمعة العظيمة -أي وقت الغروب أو بعده بقليل- يفضِّل كثيرٌ من المَسيحيِّين أن يشربوا قليلاً من الخل وهُم بعد صائمون. كما اعتاد المَسيحيُّون في ذَلِكَ اليَومِ الإفطار مساءً بعد الذهاب إلى منازلهم على الفول النابت والفلافل. ومنهم من يصوم مُنقطعًا تمامًا عن الطَّعام والشَّراب من الجمعة العظيمة حتَّى قُدَّاس عيد القيامة الذي يُقام مساء سبت النور.

ونظرًا لأن يومي أحد السَّعف وخميس العهد يقام فيهما قُدَّاس به طقوس خاصَّة لا تتكرر على مدار العام؛ لذَلِكَ يتم اعتبارهما إجازة رسميَّة للأقباط. فمثلاً إذا كنت تمرُّ بجوار كَنيسة في نهاية قُدَّاس أحد السَّعف -وفي الغالب يكون عدد المصلين كبيرًا فيضطرون للوقوف أمامَ الكَنيسة- سترى

في تِلكَ اللحظة جمهور المُصلّين الواقفين خارج الكَنيسة يقتربون من الباب رافعين أيديهم حتّى ينالَهُم بعض الماء المُصلّى عليه الذي يرشُّه الكاهن على جموع المُصلّين، وهذا الماء تمت مباركته بصلاة الجناز العام، بحيث إذا مات أحدهم - كما ذكرتُ سابقًا - يعتبر رشُّه بهذا المـاء صـلاة مُسبقة عليه.

وترتيبُ أيام أسبوع الالام هو:

أحد البصخة (نهاية يوم أحد السَّعف) - اثنين البصخة - ثلاثاء البصخة - أربعاء البصخة - خميس العهد - الجمعة العظيمة.

ثمّ سبت النُّور وبعده أحد القيامة الذي هو عيد القيامة المجيد.

الكـاهن

وهو رجلُ الدِّين "الإكليروس" الذي يقوم بالصَّلاة والخدمة الرُّوحية، وممارسة الطُّقوس الدِّينيَّة، وكلمة كاهن من الفعل "كَهَنَ" أي أنبأ أو أخبر النَّاس بإرادة الله .

وتنقسمُ الدَّرجات الكهنوتيَّة في الكَنيسة القِبطيَّة الأرثوذكسيَّة إلى ثلاث فئات: (الشمامسة - القسوس - الأساقفة)، وتحت كل فئة توجد رُتب، وبِشَكل عام يمكن أن نراهُم في هذا التَّرتيب:

الشَّمَّاس: وهو الذي يساعد الكاهن بكل درجاته في إتمام الطُّقوس الكنسيَّة، وهي كلمة سريانية تعني خادم.

القِسُّ: أو القسيس وهي من الكلمة السريانية "كاشيشو"، ومعناها شيخ، ويكون راعي كَنيسة.

القُمُّص: من الكلمة اليونانية "هيجومين" بمعنى مُدير، وهو كبير القسوس في الكَنيسة .

الأسقف: وهي من الكلمة اليونانية "إيبي سكوبو" ومعناها ناظر من فوق أو رقيب، حيثُ يكون راعي مدينة أو محافظة.

المطران: وهي كلمة يونانية مُكوَّنة من مقطعين "ميترو" أي الأم، و"بوليتيس" أي مدينة، فيكون معناها (صاحب المدينة الأم أو الكبيرة - ميتروبولوتيس) ويعلو الأسقف في الرُّتبة .

البطريرك: وتنطق بالعامية "البطرك"، وهي كلمة يونانية مُكوَّنة من مقطعين "بارتي" أي أب، و"أرشي" بمعنى رئاسة، فيكون معناها رئيس الآباء.

البابا: وأغلب الظَّنّ أنها من الكلمة اليونانية "باباس"؛ بمعنى أب الآباء، ويطلق هذا اللقب بشكل خاص على بابا الإسكندرية وبابا روما. وينسب لقب بابا إلى الإسكندرية لأن بها تأسَّس أول كرسيّ للبابويَّة على يد مُرقس الرَّسول، لذَلِكَ نطلق عليه لقب خليفة مارمرقس.

والشَّمَّاسُ والقِسُّ (أو القُمُّص) يمكن لهما الزَّواج، بعكس الأسقف (أو من يعلوه من رُتب)، ولا يصلُ القِسُّ لدرجة أسقف إلا لو كان بتولاً (مُترهِّبًا لا يتزوَّج) ولكنه يُرَقَّى لدرجة قمُّص.

ملابسُ الكهنة

من الأمور التي صارت تثير جدلاً وتساؤلات كثيرة بينَ المُسلِمين هو لون ملابس الكهنة، حيثُ يتصوَّر كثير من المُسلِمين أن رجال الدِّين المَسيحيّ يرتدون الملابس السَّوداء حزنًا على دخول العرب مِصر، ويعتقدون أنهم سيغيرون لونها بعدما يرحل هؤلاء العرب!! وهو تصوُّر خاطئ بجانب تصوُّرات أخرى كثيرة خاطئة تكشف كلها مدى النَّقص الشَّديد في معرفة المُسلِمين، ليسَ فقط بعقيدة المَسيحيِّين، بل أيضًا بتاريخهم وفكرهم وحياتهم الاجتماعية.

أما سر ارتداء رجال الدِّين المَسيحيّ للَّون الأسوَد فله أصل تاريخيّ يعود إلى أحد حُكَّام العرب، وهو الحاكم بأمر الله الفاطمي، الذي أمر أن يرتدي جميع الأقباط اللون الأسوَد لتمييزهم عن المُسلِمين، وبعد انتهاء عصر هذا الحاكم وجد الكهنة أن الملابس السَّوداء تدلُّ على الوقار والاحترام، فاحتفظوا بها كَرِدَاءٍ لهم، وبمرور الوقت أصبح للَّون الأسوَد معنى رُوحي آخر، فالكاهن يحمل خطايا شعبه (أي رعيته) على كتفه، فهو المسئول عن كل فرد من شعبه في منطقته الرَّعوية، وسيُحاسَبُ عنهم أمامَ الله؛ فاللون الأسوَد يمثِّل الحزن على الخطايا ويذكِّره دائمًا بالمسئولية، أيضًا يرتدي القِسُّ أو الرَّاهبُ الزيَّ الأسوَد إشارةً لموته عن العالَم وتكريس حياته الجديدة لخدمة الله.

جدير بالذِّكر أن رجال الدِّين يرتدون أثناء صلوات القُدَّاس ملابس بيضاء فوق زيّهم الأسوَد كرمز آخر للطَّهارة التي يجبُ أن يتحلَّى بها الإنسان في حضرة الله حسبَ سِفر الرُّؤيا.

الـــزَّواجُ

الزَّواجُ في المَسيحيَّة هو سرٌّ مُقدَّس، وهو من الأمور التي وردت بشأنها نصوص كثيرة تؤكِّد كلها على قدسيته وأهميته. فقد رأى الله أنه: "ليسَ جَيِّدًا أن يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَع لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ " (سفر التَّكوين ٢:١٨). ومن ثَمَّ خلق الله حواء ودعيت امرأة: " أنهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ" (سفر التَّكوين ٢:٢٣). ولذَلِكَ " يَتْرُكُ الرَّجُلُ أبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَان جَسَدًا وَاحِدًا" (سفر التَّكوين ٢:٢٤).

ومن شروط الزَّواج المَسيحيّ أن يكون الزَّوج والزَّوجة مَسيحيَّيْن، ومن نفس المِلَّة أي الطَّائفة، وهذا يفسِّر لماذا يتحايل البعض على طلب الطَّلاق بتغيير مِلَّته؛ إذ إنه لا يوجد طلاق إلا لعلَّة الزِّنى حسبَ قول الإنجيل، كما يفسر لماذا تحدث أزمة إذا تزوَّج شاب مُسلِم فتاةً مَسيحيَّةً، فمن جانبه هو لم يخطئ دينيًّا، حيثُ يبيحُ له الإسلامُ الزواجَ من كتابيَّة، بينما تُعَدُّ هي مُخطئة؛ لأنها لا يجوز لها الزَّواج من شخص غير مَسيحيّ.

ومراسمُ وطقوسُ الزَّواج -في الأرثوذكسيَّة- هي:

صلاة "جبنيوت": أو "جابنيوت" هي صلاة الخطوبة التي تعرف خطأ بصلاة نصف الإكليل، وهي الصَّلاة الشَّهيرة التي مطلعها "أبانا الذي في السَّموات"، والاسم جاء من أول كلمة في النَّص القِبطيّ لها، فكلمة جبنيوت كلمة قِبطية تعني "يا أبانا"، معَ صلوات خاصَّة بطقس الخطوبة يصبحان بعدها خطيبين، وهي تشبه قراءة الفاتحة عند المسلمين، أي أنه اتفاق مبدئي يمكن العدول عنه حسب رغبة أي طرف.

صلاة الإكليل: وهو طقس الزَّواج، وفيه تُتلَى صلواتٌ كثيرةٌ، تبدأ بصلاة الشُّكر وقراءات من الإنجيل، ثمَّ يتم لبس الدبل، وبعدها يتم تتويج العروسين بأكاليل كأنهما ملكين مُتوَّجَيْن يؤسِّسان مملكةً صغيرةً لهما؛ لهذا سُمِّيت بصلاة الإكليل، ثمَّ يقرأ الكاهن الوصيَّة الخاصَّة بكلٍّ منهما، حيثُ يوصي العريس قائلاً:

"-يجبُ عليكَ أيها الابن المبارك المؤيَّد بنعمة الرُّوح القُدس أن تتسلَّم زوجتك في هذه السَّاعة المباركة بِنِيَّة خالصة ونفس طاهرة وقلب سليم، وتجتهد فيما يعود لصالحها، وتكون حنونًا عليها، وتسرع إلى ما يسرُّ قلبها، فأنت اليَوم المسئول عنها من بعد والديها... إلخ".

ثمَّ يوصي العروس قائلاً:

"-وأنتِ أيتها الابنة المباركة، العروس السَّعيدة، فيجبُ عليك أن تكرميه وتهابيه ولا تخالفي رأيه، بل زيدي في طاعته على ما أوصى به أضعافًا، فيجبُ عليكِ أن تقابليه بالبشاشة والتِّرحاب... إلخ".

وبعدها يسجدان أمامَ الهيكل ورأساهُما متقاربان، بينما يتلو الكاهن صلاة بركة لهما، ثمَّ يزفهما الشَّمامسة بالألحان حتَّى باب الكَنيسة.

الصَّليبُ

ماذا يمثِّل لنا؟ ولماذا نرشمه على وجوهنا وصدورنا؟ أليس هو مجرد أداة قتل؟ هل نعشق أدوات القتل لهذه الدرجة؟!

نحن لا نعبد الصَّليب كما يحلو للبعض أن يتصوَّر، حيثُ يطلقون علينا "عُبَّاد الصَّليب"، ولكن حسب إيماننا لم يكن صلب السَّيِّد المَسيح مجرد جريمة قتل، بل كان خطَّة الله للبشريَّة لإتمام الفداء، وهذا الصَّليب بالنِّسبة لنا وسيلة تحقيق هذا الفداء، وليس مجرد أداة تنفيذ حكم إعدام على شخص، وصار له معاني رُوحيَّة كثيرة، فهو مثال لقِصَّة الحبِّ العجيب -قِصَّة الفداء- وهو أيضًا رمز للانتصار، فمن خلاله هزم المسيح الشَّيطان بقيامته، هو علامة افتخار، ورمز للحياة الجديدة؛ لذَلِكَ يردد كلُّ مَسيحيّ معَ بولس الرَّسول: "مَعَ الْمَسيح صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لاَ أَنَا، بَل الْمَسيح يَحْيَا فِيَّ" (رسالة بولس الرَّسول إلى أهل غلاطية ٢:٢٠). نحنُ نحمل الصَّليب؛ لأنه يمثِّل قوةً رُوحيةً وحياةً.

للصَّليب معنى آخر معنوي، فحينما يمرُّ إنسان بضائقة أو أزمة فهو يعتبر ذَلِكَ صليبًا من نَوع خاصٍ، حيثُ يتذكَّر آلام المَسيح فيتعزَّى ويحتمل آلامه، فالصَّليب مُرتبط أيضًا بالألم والمعاناة اللذين بهما تتطهَّر النَّفس، ومِن ثَمَّ تستحقُّ الحياة الأبدية. إذًا كل تجربة قاسية يمرُّ بها المَسيحيُّ هي صليب يحمله، لذَلِكَ تجد من حوله يقولون له ليشدُّوا من أزره: "معلش ده صليبك، استحمل".

الصَّليب مُقدَّسٌ، ولكنه غيرُ "معبود" على الإطلاق – وبالمناسبة نحن لا نعبدُ أيضًا السَّيِّدة العذراء - ولقدسيَّة الصَّليب وأهميته لنا فإننا نرشمه على صدورنا بتلك الإشارة الشَّهيرة، والبعض يرشمه بالوشم على معصم يده اليُمنى أو بالعاميَّة "داقق صليب"، ويرتديه البعض في سلسلة على الصدر. ونرشمه باللفظ حين نقول في مواقف مختلفة "بسم الصليب": لأننا نؤمن أنه حماية لنا.

مفهومُ الحرامِ والحلال في المَسيحيّة

منذُ فترة شاهدتُ في أحد البرامج لقاءً بينَ رجل دين مُسلِم ورجل دين مَسيحيّ، ومعهم بالطَّبع مُقدِّم البرنامج، وكان اللقاء يدور حول فكرة: هل الخمرُ مُحرَّمةٌ في المَسيحيَّة كما هي مُحرَّمةٌ في الإسلام أم لا؟ وبغضّ النَّظر عن الخمر وتحريمها فهي ليست قضيَّتي الآن، لكن الذي توقَّفت عنده هو فكرة التَّناظر نفسه بينَ الرَّجلين، وبدا الأمر كأنه مُسابقة في أيهما سوف يحرِّم الخمر بشَكل أفضل من الآخر.

وبشَكل عام، أتصوَّر أن الطَّريقة التي نفكِّر بها كمَسيحيِّين في أمور الحلال والحرام غير معروفة لكثير من المُسلِمين، فالمَسيحيَّة ليسَ بها "حرام وحلال"، ولكن بها دستور عام، وفي إطار هذا يستطيع كل شخص أن يحدِّد ما يتفق أو لا يتفق معَ هذا الدُّستور، وفي هذا يقول بُولس الرَّسول:

"كُلُّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي، لكِنْ ليسَ كُلُّ الأَشْيَاءِ تُوافِقُ، كُلُّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي، لكِنْ لاَ يَتَسَلَّطُ عَلَيَّ شَيْءٌ" (رسالة بولس الرَّسول الأولى إلى أهل كورنثوس ٦:١٢).

ويقول أيضًا:
"لِتَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ لِلرَّبِّ، فِي كُلِّ رِضًى، مُثْمِرِينَ فِي كُلِّ عَمَل صَالِحٍ" (رسالة بولس الرَّسول إلى أهل كولوسي ١:١٠).

والكثير من الآيات التي تلحُّ في أننا نتَّبع دستورًا مُعيَّنًا:
"فَقَطْ عِيشُوا كَمَا يَحِقُّ لإِنْجِيلِ الْمَسِيحِ" (رسالة بولس الرَّسول إلى أهل فيلبي ١:٢٧).

وبالتالي ليمن مطلوبًا من كل شخص مَسيحيٍّ سوى تقييم كل شيء في ضوء هذا الدُستور، ومن ناحية أخرى فأن التَّعاليم المَسيحيَّة كلها تُغلي كثيرًا من شأن الضَّمير، وتُغْلِي درجة الإحساس بالخطأ، فلم يقل السَّيِّد المَسيح "لا تزن"، بل قال: "أن كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ" (متى ٥:٢٨). وهكذا.

المَسيحيَّةُ تعلِّمنا أن نحيا كأبناء لله لا كعبيد، حتَّى إننا حينما نصلِّي نقول: "أبانا الذي في السَّموات". وجدير بالأبناء أن يسلكوا كما يليق بالآب؛ "لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ، وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ" (متَّى ٥:١٦). ولهذا يقول بولُس الرَّسول: "إن كُنْتُمْ قَدْ مُتُّمْ معَ الْمَسِيحِ عَنْ أَرْكَانِ الْعَالَمِ، فَلِمَاذَا كَأَنَكُمْ عَائِشُونَ فِي الْعَالَمِ؟ تُفْرَضُ عَلَيْكُمْ فَرَائِضُ: لاَ تَمَسَّ! وَلاَ تَذُقْ! وَلاَ تَجسَّ"! (رسالة بولس الرَّسول إلى أهل كولوسي ٢:٢٠). المَسيحيَّة لا تقول (لا تفعل كذا) بل تقول (افعل ما يليق).

يقول "بيرتون بورتر" في كتابه "الحياة الكريمة" ترجمة "د. أحمد حمدي محمود" الجزء الثاني:
"لا بُدَّ من التَّنويه إلى أنه بالرغم من أن الاتجاه الأساسيَّ للعهد القديم كان تعريف الخُلُق القويم بأنه الطَّاعة الصُّوريَّة، إلا أن العبرانيين قد ذهبوا إلى ما هو أبعد من هذا التَّصوُّر، بالتَّشديد على التَّمسُّك الدَّقيق بالقواعد وطقوس العبادة وإعطائها الصَّدارة على مطالب الدِّين الجوهريَّة، ولم يشذ العبرانيون الأوائل على هذا التَّقليد، ولكنَّهم اتجهوا إلى إدراك وجود ناحية عادلة في مطالب الله، ورأوا اتباع إرادته على نحو يتناسب ودرجة إدراكِهم كراشدين مسئولين أخلاقيًّا، لا مجرَّد فتيان طيِّعين.

يتباين العهد الجديد وهذه النظرة المتشدِّدة إلى الالتزام الدِّيني؛ لأنه ركَّز على مَحبَّة الله أكثر من التَّركيز على الولاء له. وتُشيد المَسيحيَّة دائمًا برُوح القانون أكثر من التَّمسُّك بحرفيَّته، وتهدف إلى تهذيب أفئدتنا أكثر من تقويم إرادتنا. وإلى التَّوجُّه الصَّحيح إلى الله بنيَّة طيِّبة وإيمان حق بدلاً من التَّهيُّب والخشوع والأداء المظهري للطُّقوس. فلا بُدَّ أن يحلَّ الأمل مَحلَّ الخوف. الأمل في التَّحرُّر عن طريق العناية الإلهية. فبدلاً من الانتفاض من غضب الله. علينا أن نطمئنَّ إلى رحمته وعطفه وغفرانه لتوبتنا الصَّادقة. وبنظر إلى مشاعر الأخوة والعطف كفضائل مُهمَّة، وبخاصَّة تجاه الفقراء والأذِلَّاء والمساكين. واستعاضت المَسيحيَّة عن اختيار العبرانيين وحدهُم كشعب مُختار بالنَّظر إلى البشر جميعًا نظرة واحدة. والنظر إلى امتلاك الدَّوافع الحقة لمحبَّة البشرية جمعاء على أنها أهم من أداء شعائر مُعيَّنة. بالرغم من المساواة في الأهمية بينَ الأخلاقيات الاجتماعية ومجاراة الله في عنايته بالإنسان. فمحبَّةُ الشَّخص لجاره والتَّسامُح معَ أعدائنا (عِوَضًا عن اكتفائنا بمحبَّة ذوي القُربى ومعاملتنا الأعداء بالمثل)، انعكاس لمعاملة الله للإنسان. ودعت المَسيحيَّة أيضًا إلى العبادة الحقة لله من خلال رُوح المحبَّة والغُفران.

وجاء أفضل تعبير عن مبادئ الحياة المَسيحيَّة فيما قاله يسوع في عِظة الجبل (إنجيل مَتَّى ٢٥:٤)، "ففيها عرض يسوع أسس الأخلاقيَّات المَسيحيَّة، التي تتركز حول مفهوم المحبَّة".

بعضُ المُصطلحاتِ المَسيحيّة

أسماءُ الطَّوائفِ المَسيحيَّةِ الرَّئيسيَّة:

أرثوذكس :"Orthodox" وهي كلمة يونانية مُكَوَّنة من مقطعين "أرثوس" وتعني مُستقيم، و"ذوكسا" وتعني رأي فيكون معنى الكلمة هو "الرأي المستقيم".

كاثوليك :"Catholic" أي الجامعة، والمقصود الكَنيسة الجامعة.

بروتستانت :"Protestant" من كلمة "Protest" وتعني المعترض أو المحتج .

ومن الكلمات أو المصطلحات التي نردّدها كنسيًّا:

الطَّقس: من الكلمة اليونانية "تاكسيس" بمعنى نظام وترتيب.

الإكليروس: أي رجال الدِّين، وهي من الكلمة اليونانية"CLERGY" ، ومنها كلمة "إكليريكي".

العَلماني: كل ما عدا رجال الدِّين في الكَنيسة، فكل شخص مَسيحي آخر هو عَلماني بفتح العين نسبة إلى العَالَم أي (الدنيوي)، وأصل الكلمة يعود إلى الكلمة اللاتينية "LAICUS" التي منها الكلمة الإنجليزية "Laity" و"Layman": أي علماني، وقد ظهرت كلفظ مقابل لكلمة "CLERGY" التي تعني رجل الدِّين.

رشم: لعلك سمعت عبارة "رشم الصليب" أو "يرشم الصليب" أو عبارة "فلان رُشِم كاهنًا" بضم الرَّاء أي مبني للمجهول، والتي تعني أنه قد سيم كاهنًا على كَنيسة ما، وكلمة رَشَم (بفتح الرَّاء) هي كلمة سريانية، وهي ترجمة للكلمة اليونانية "SOPHRAGIS" التي تعني ختم.

القُدَّاس: كلمة سريانية تمَّ تعريبها والجمع قداديس أو قدَّاسات، والكلمة تعني التَّقديس، وهي الصَّلوات التي تقالُ أثناء القُدَّاس الإلهي لتقديس الخبز والأباركة.

قربان: من الكلمة السريانية "كوربونو"، وهي التَّقدُّمية، وهو في الكَنيسة عبارة عن خبز خالٍ من الخميرة.

أباركة: كلمة يونانية، ومعناها باكورة، وتطلق على عصير العنب المختمر (ليس نبيذًا، فنسبة الكحول لا تزيد عن ٥ %، ويتم إضافة ثلث الكمية من الماء في القداس).

الخولاجي: كلمة من أصل يوناني وهو كتاب صلوات القُدَّاس الإلهي.

الأجبية: كلمة من أصل قِبطيّ، "أجب" بمعنى ساعة، وهو كتاب صلوات السَّاعات، ويحوي السَّبع صلوات التي تُتلى على مدار اليَوم، ومنها كلمة "وجبة" أي أكلة.

إنجيل: من الكلمة اليونانية "إيفانجيليون"، ومعناها البشارة المُفرحة أو الخبر السَّار.

ملاك: كلمة عبرية من "ملاخ" بمعنى رسول، وفي اليونانية "أنجيلوس" أي رسول أو مُبشِّر ومنها "Angel" بالإنجليزية، ويلاحظ أنها نفس أصل كلمة إنجيل حيث إن الإنجيل بشارة والملاك مُبشِّر.

كيرياليسون: كلمة يونانية معناها يا رب ارحم، حيثُ "كيري" تعني سيِّد أو رب و"أليسون" تعني ارحم.

الباراقليط: كلمة يونانية"PARAKLETOS" ، ومعناها المُعزِّي .

لماذا هناك طوائف في المَسيحيّة؟

حدث هذا بعد مَجمع "خلقيدونية" سنة ٤٥١، حيثُ دار خلافٌ حادٌ وقتها حول بعض الأمور العَقَائِدِيَّة، أدّى إلى انفصال الكنائس الشَّرقيَّة (القِبْطيَّة والأَرمِينِيَّة والسُّريَانِيَّة) عن الكَنيستين الرُّومانية والبيزنطية، ومِن ثَمَّ ظهرت طائفتا الأَرثُوذُكْس والكَاثُوليك.

الأَرثُوذُكْس:
وتعني الرَّأي المُستقيم؛ لأنهم حافظوا على الإيمان كما تَسَلَّموه من رُسل وتلاميذ السَّيِّد المَسِيح، وهو ما يُعرَف كَنَسِيًّا باسم "التَّسْلِيم الرَّسُولي".

الكَاثُوليك:
وتعني الجامعة، حيثُ جَمَعَتْ كلَّ أصحاب الكنائس الغربيَّة الذين اختلفوا عن الفِكْر الأَرثُوذُكْسِيّ في بعض المَفَاهِيم.

ورغمَ انفصال الكنائس الشَّرقيَّة عن الغَرْبِيَّة بعد مَجمع "خلقيدونية"، إلا أن الأَرثُوذُكسِيَّة والكَاثُوليكيَّة طائفتان متقاربتان جدًّا في العقائد والطُّقوس، بعكس البرُوتستَانت التي تختلفُ اختلافًا كبيرًا عنهما.

البرُوتستَانت:
في القرن السَّادس عشر ظهر البرُوتستَانت كحركة انفصالية وإصلاحية عن الكاثوليك تَزَعَّمَها مارتن لوثر، وقد ظهرت بسبب وجود ما يُعرَف بصُكُوك الغُفْران عند الكَاثُوليك، فقد هاجمها مارتن لوثر وقاد ضدَّها ثورةً كبيرةً انتهت بظهور البرُوتستَانت، وهم بشَكلٍ عامّ مَسيحيُّون؛ لأنهم يؤمنون

بالعقائد الأساسية، ولكن يختلفون في بعض الأمور التي تخص الأسرار الكنسية، كما ينكرون الطقوس، ولا يعترفون بالقُدَّاسات، ولا سر التَّناول، ويرفضون التَّسليم الرَّسولي، حيثُ يكتفون بالكتاب المُقدَّس فقط؛ لذَلِكَ يُسَمُّون أيضًا "إنجيليِّين"، ويعترضون على الأصوام وسر الكَهَنُوت فليس لديهم كَهَنُوت، ويختلفون في أمور أخرى كثيرة، ولذَلِكَ أُطلِق عليهم برُوتستَانت أي المعترضين أو المحتجِّين، ويؤمنون بالحكم الألفي؛ أي أن السَّيِّد المَسيح سيأتي في آخر الزَّمان ويحكم ألف سنة على الأرض.

ومِن البرُوتستانت خرجت طوائف كثيرة، وسبب ذَلِكَ هو عدم وجود طقس مُحدَّد لها.

اليهــودُ

يتكوَّن الكتابُ المُقدَّس من قسمين كبيرين: القسم الأول هو العهد القديم، وفيه التَّوراة معَ أسفار أخرى كثيرة، وهو قاسم مشترك بيننا وبين اليهود، والقسم الثاني هو العهد الجديد الذي يحوي الأربعة أناجيل معَ أسفار أخرى أيضًا. والعهد القديم يَتَنَبَّأ بمجيء "مسيًّا أو مَسيح" كَمُخَلِّص، وحينما جاء السَّيِّد المَسيح لم يؤمن به اليهود، لذَلِكَ فمن الناحية الدِّينية نحنُ واليهود طرفا نقيض، لأنهم ببساطة لا يؤمنون بالسَّيِّد المَسيح، ولا يعترفون بأنه هو "المسيَّا المُنتَظَر" الذي تحدَّثت عنه التَّوراة وكل أسفار العهد القديم، لذَلِكَ فهُم متوقِّفون عند العهد القديم، وما زالوا ينتظرون "المسيَّا"، وهذا هو سرُّ تمسُّكهم بأرض فلسطين، ومحاولتهم إعادة بناء هيكل سليمان؛ لأنها الأرض التي لا بد أن يظهر فيها "المسيَّا" حسب نبوءات العهد القديم، أمَّا في المَسيحيَّة فـ"المسيَّا" أو المَسيح قد جاء فعلاً وفي المكان نفسه، وبالتالي لم يعُد هناك حاجة لها حاليًّا كما يظنُّ اليهود.

الخلافُ الدِّينيُّ بينَ اليهود والمَسيحيِّين أشد من الخلاف بينَ اليهود والمُسلِمين، فهُم بالنِّسبة للمَسيحيِّين قد صلبوا السَّيِّد المَسيح، وقبلها ثار كهنتُهم وقادتهم عليه، هذا من الناحية الدِّينيَّة، فلا اتفاق بيننا وبينهم كما هو واضح، بل أن رؤية المُسلِمين للسيد المَسيح أقرب للمَسيحيِّين من اليهود الذين لا يعترفون به أصلاً. أمَّا مساندة أمريكا الحاليَّة لإسرائيل فيجبُ أن ننظر لها من منظور سياسيّ وليس دينيًّا، ومن منظور المصالح وليس العقائد. فاليهودية والمَسيحيَّة ليسا في الأساس على فكر أيديولوجيّ واحدٍ.

أما الأفعال الوحشية التي يمارسها اليهود في فلسطين ضدَّ الشَّعب الفلسطينيِّ -المُسلِم والمَسيحي- بهدف الاستيلاء على هذه الأرض، وليس ضدَّ المُسلِم لأنه مُسلِم.

نحن نرفض وحشية وهمجية اليهود. ولكن لا يعني هذا أننا نكره اليهود كشعب، أو حتَّى يجبُ أن نكرههم، فالسَّيِّد المَسيح قال: "أحبُّوا أعداءكم". وقال أيضًا: "لا تواجه الشَّر بالشرِّ، بل واجه الشَّر بالخير". وها نحن كأقباط نتبنَّى الموقف الوطنيَّ والشعبيَّ في مِصر، لذَلِكَ أصدر البابا قراره بعدم السَّماح للأقباط بالذهاب إلى الأماكن المُقدَّسة في القُدس إلا معَ المُسلِمين يدًا بيد.

الرّهبنـة والأديـرة

بدأت الرُّهبنة في مِصر ومنها انتقلت للعالم كله، وأول من أسَّس نظام الرُّهبنة هو القِدِّيس أنطونيوس المولود عام ٢٥١م، وبدأت رحلته معَ الرُّهبنة حينما دخل الكَنيسة لحظة قراءة الإنجيل فسمع الآية التي تقول: "إن أَرَدْتَ أن تَكُونَ كَامِلاً فَاذْهَبْ وَبِعْ أَمْلاَكَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ، وَتَعَالَ اتبَعْنِي" (إنجيل متَّى ٢١:١٩). كانت هذه الآية نقطة تحوُّل في حياته، فقد كان غنيًّا ولكنه قرر بعدها أن يطبِّق الآية حرفيًّا، فقام بتوزيع أملاكه على الفقراء وذهب للتعبُّد بعيدًا، وأسَّس بذَلِكَ فكرة الرَّهبنة التي تعتمد على التَّعبُّد في مكان ناءٍ غالبًا ما يكون في الصَّحراء، ثمَّ جاء بعده القدِّيس باخوم الذي أسَّس أول دير في العالم، وكان ذَلِكَ في مطلع القرن الرَّابع الميلاديِّ، ثمَّ شاعت فكرة الأديرة بعد ذَلِكَ في بلاد كثيرة نقلاً عن نظام الدَّير المِصريِّ، والدير هو مسكن الرُّهبان حيثُ يكون لكل راهب صومعته الخاصَّة.

والراهب هو شخص بتول غير متزوج، نذر نفسه للعبادة والتقشُّف والزُّهد في كلِّ شيء، فمن يتقدَّم للرَّهبنة يخضع لاختبارات وتدريبات كثيرة، حتَّى يطمئنَّ هو نفسه من قدرته على احتمال التَّخلِّي عن كل شيء، فمنذ اللحظة التي يُرْسَم فيها راهبًا يعتبر كأنه مات عن العالم، بل وتُقْرأ عليه أثناء الرسامة أجزاء من صلوات الدَّفن.

والراهب يعيش في تدريبات رُوحيَّة صعبة جدًّا وصلاة وصوم وزهد، وفي بعض الأوقات عمل شاق لإذلال الجسد.

كما أن العمل اليدوي من أساسيات الحياة الرَّهبانية: حتَّى لا يجلس الرَّاهب بلا عمل، بجانب حياته الرُّوحية من الصَّلاة والعبادة.

ألفاظ ذات دلالة

على مدى عشرات السِّنين أنتج المُجتَمَع تحتَ ظروف مختلفة أسماء وألقابًا كثيرةً أطلقت على الأقباط، ويتم استخدامها أحيانًا بتعصُّب وأحيانًا دون وعي كافٍ، وأحيانًا بحُسن نيَّة، وفي الواقع لا توجد مشكلة لديَّ معَ كل الألفاظ، وإنما تكمن المشكلة كلها في المعنى المراد توصيله من خلالها، فمثلاً كلمة "نصارى" هي كلمة قرآنية، وبالتالي يصبح من حقِّ المُسلِم استخدامها، ولكن بعض المُسلِمين المتعصِّبين نجحوا في أن يجعلوا الأقباط يكرهون تِلكَ الكلمة، فهُم دائمًا يستخدمونها بهدف توصيل معنًى سلبيّ لا نرتاح له، فحين تسمعها من أحدهم تكاد رياح الكراهية الخارجة منه معَ حروفها تلفح وجهك، حتَّى أصبح هناك ارتباطٌ شرطيٌّ بينها وبين التَّعصُّب.

كما أن أحد أسباب كراهية الأقباط لذَلِكَ الاسم يعود لكونه اسمًا لطائفة قديمة مُرتدة عن المَسيحيَّة وهي "النصرانية"، والتي ظهرت بجانب هَرْطَقَات أو بدع أخرى مثل "النِّسطُوريَّة" و"الأريوسية"، وفي ندوة أقامها مُنتدى الحوار في مكتبة الإسكندرية عن "الإسلام والآخر" تحدَّث الدكتور "محمد سليم العوَّا" عن هذه الكلمة في سياق الإجابة على سؤال أرسله أحد الحاضرين بخصوصها، وأكد على أن البعض بالفعل يسيء استخدامها ويتعمَّد إهانة الأقباط بها، وقال إنه ما دام الأقباط لا يحبُّون هذه الكلمة فيجبُ إلا نستفزَّهُم بها، وكونها كلمة قرآنية لا يمنع التَّوقف عن استخدامها، مثلها مثل ألفاظ أخرى كانت تستخدم في الماضي ولم تعُد كذَلِكَ الآن رغمَ ذكرها في القرآن.

وهناك كلمات أخرى سلبية تستخدم بهدف الإساءة بدون أن يعرف مستخدمها أصلها اللُّغويَّ، رغمَ إنها قد لا تكون سيئة في معناها الأصلي، مثل "كُوفْتِس" التي هي من "Copts" أي أقباط. أمَّا عبارة "أربعة ريشة" فهي إشارة إلى الصَّليب.

كما يُذكر أن الحاكم بأمر الله الفاطمي ألزم الأقباط بحمل صليب وزنه خمسة أرطال لإذلالِهم، فكان الحبل المُعلَّق به يحك ويضغط على منطقة الرَّقبة من الخلف حتَّى صار لونها أزرق، وصارت علامة مُمَيِّزة للقِبطيِّ، ومن وقتها ظهر تعبير "عضمة زرقا"، وكانت هناك عادة لدى بعض المَسيحيِّين قديمًا، وهي أنه إذا ظهرت الغدة النكافية لدى الأطفال يقومون برَشْمِهِم بعلامة الصليب باستخدام هَبْو الحلل النحاسية الناتج من وضعها على "الكانون" الذي كان وسيلة الطَّهي البدائية. فظهر لهذا السَّبب تعبير "صليب الحلة".

أما الكلمة الأكثر شُهرة في إطلاقها على الأقباط فهي كلمة "خواجة"، وبرغم أنها تُستَخدَم بحُسن نيَّة في أغلب الأحيان إلا أنها تحمل معاني سيئةً: حيثُ توحي بأننا غرباء أو ضيوف أو جالية أجنبية.

وبعيدًا عن الألفاظ السَّلبية نجد كلمة "قِبطيّ" نفسها التي تعود إلى الأصل اليوناني "إيجيبتوس"، والذي هو تحوير للكلمة "حا - كا - بتاح": أي مكان الإله بتاح، ومنها "Egypt" في اللغة الإنجليزية. وهناك تفسير آخر يقول أن كلمة "جبت" تعني الأرض السَّوداء، حيثُ كان المِصريُّ القديم يُسمِّي منطقة وادي النيل بهذا الاسم.

إذًا "قِبطيّ" في الأصل تعني مِصري بغضّ النظر عن عقيدته، ولكن شاع استخدامها بشَكل خاص على المِصريِّ المَسيحيّ، ولكن في واقع الأمر كل مِصريٍّ فهو قِبطيٌّ.

وجدير بالذِّكر أن أحد تفسيرات اسم "مِصر" يعود إلى اسم "مِصرايم بن حام بن نوح".

الأسمـاءُ المَسيحيّة

تبدو أسماء الأقباط صعبةً وغير مُستساغة لكثير من المُسلمين، وهذا أمرٌ بَدَهيٌّ؛ فمعظم تِلكَ الأسماء ليست باللُّغة العربيَّة، وإنما يتنوع أصلها بينَ عدة لُغات مُختلفة، مثل القِبطيَّة التي هي امتداد للُّغة الهيروغليفية، واليونانية التي تكتب اللُّغة القِبطيَّة بحروفها، والعبريَّة باعتبار أن الكتاب المُقدَّس يمثِّل مصدرًا كبيرًا لأسماء المَسيحيِّين والأسماء التي وردت به أغلبها عبرية، بما في ذَلِكَ أسماء الأنبياء مثل: إبراهيم وسُليمان ويعقُوب ويوسُف وداوُد وإسماعيل، وهي طبعًا أسماء مُشتركة بينَ المَسيحيِّين والمُسلِمين، هذا بخلاف بعض الأسماء من اللُّغات الأوربية مثل الإنجليزية والفرنسية.

ومن التَّقاليد الشَّهيرة أن من يُرْشَم كاهنًا يتمُّ تغيير اسمه الذي كان يحيا به كشخص علمانيّ - تعني كنسيًّا من هُم ليسوا رجال الدِّين - إلى اسم جديد من التُّراث المَسيحيّ بحيث يحمل اسم قديس أو نبي أو اسم أحد رُسل السَّيِّد المَسيح أو تلاميذه، وبالمثل من يذهب إلى الرَّهبنة.

أما عن معاني الأسماء في الكتاب المُقدَّس فغالبًا ما يكون الاسم مُرتبطًا بموقف في حياة الشَّخص المُسمَّى، فمثلاً معنى اسم إبراهيم هو "أب لجمهور كثير"، وقد كان كذَلِكَ، وإسحق تعني "ابن الضحك": لأن أبويه ضَحِكا عندما سمعا وعدَ الله بأنهما سيُنجِبان ولدًا، وقد كان سِنُّهما كبيرًا، وإسماعيل معناه "الله يسمع": أي أن الله سمع أو استجاب لرغبة إبراهيم في أن يكون له ولد، وهو من مقطعين: "اسمع" أي يسمع، و"إيل" أي الله في العبرية، ويلاحظ التَّشابُه اللُّغوي بينَ العربيَّة والعبرية، وإسرائيل معناه "مُصَارِع الله" لأنه تَصَارَع معَ الملاك الذي ظهر له ليباركه، وصَارَعَ هنا لا

تعني معركة، ولكن كانت بمثابة إلحاح وإصرار في طلب البركة، والمقطع "إسرا" معناه يصارع، وقبل ذَلِكَ كان اسمه يعقوب، وسُمِّيَ كذَلِكَ لأنه كان ممسكًا "بعَقِبِ" أخيه التَّوأم أثناء الولادة.

وكثيرًا ما نجد تفسير اسم شخص ما أو نبيٍّ مكتوب سببه في الكتاب المُقدَّس، والموقف الذي كان سبب هذا الاسم، فمثلاً بخصوص اسم إسرائيل نجد في سفر التَّكوين: "لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِيمَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ" (سِفر التَّكوين ٣٢:٢٨). وبخصوص اسمه السَّابق "يعقوب" نقرأ في التَّكوين أيضًا: "وَبَعْدَ ذَلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ بِعَقِبِ عِيسُو، فَدُعِيَ اسْمُهُ يَعْقُوبَ" (سفر التَّكوين ٢٥:٢٦). أمَّا اسم إبراهيم فنقرأ في سفر التَّكوين: "فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ" (سفر التَّكوين ١٧:٥). وكان اسمه "أبرام" التي معناها "الأبِ المُكرَّم".

وإذا كنتَ قد لاحظتَ على غلاف هذا الكتاب اسمًا غريبًا "شمعي"؛ فهو أيضًا من الكتاب المُقدَّس، ويعني "مسموع له" أي "الله يسمع"، مثله مثل اسم إسماعيل، الفرق أنه بدون المقطع "إيل" معَ بعض التَّحوير اللفظي والتبديل بينَ السِّين والشِّين، وهذا شائع في كثير من اللغات، ومثله أيضًا شمعون وسمعان فلهُما نفس المعنى، ويُترجَم في لغات أخرى إلى شيمون وسيمون، كما تترجم أسماء مثل "ميخائيل" إلى ميشيل ومايكل وميكائيل.

أمثلة أخرى لبعض الأسماء المسيحيَّة ومعناها:

جرجس: (جورج) بمعنى فلاح.

جورجيت: فلاحة صغيرة.

روماني: كلمة يونانيَّة معناها قوي .

يوسف: (جوزيف) اسم عبريٌّ معناه يزيد.

أنجيلا: اسم إيطالي معناه ملاك، وبالمثل إنجي وإنجيلوس.

بولس: (بولا - بافلي) كلمة يونانية معناها صغير أو قليل .

مارينا: معناه بَحَرِيَّة (وما زال يُطلَق على مرسى المراكب أو المدن السَّاحلية هذا الاسم).

فيلمون: مُحِب (المقطع فيلو أي يحب كما في فيلسوف أي مُحب الحكمة).

إيريني: سلام.	أنطونيوس: عوض.
أغابي: المحبة.	أبانوب: أبو الذهب.
برسوم: ابن الصوم.	بطرس: صخرة .
جانيت: حنونة.	راعوث: جميلة.
تريزا: رقم (١٣) بالفرنسية.	رافائيل: الله الشَّافي.
زكريَّا: الرَّب يذكر.	كيرلس: عزيز أو سيِّد الشَّعب .
شنودة: ابن الله.	صموئيل: اسم الله.
غبريال: رجل الله.	فلوباتير: مُحِب لأبيه.
فيفيان: نشيطة.	بيشوي: السَّامي أو العالي.
كاترين: نقيَّة.	مارتينا: المحاربة.
مونيكا: فريدة.	نوح: راحة.
سُليمان: رجل السَّلام.	داوُد: محبوب.

اللُّغـــةُ القِبطيّـــةُ

اللُّغةُ القِبطيّةُ هي آخر مرحلة من مراحل تطوُّر اللُّغة الهيروغلفية القديمة، والتي تستخدم فيها الحروف اليونانية بدلاً من الرُّموز والصُّور الصَّعبة في اللُّغة الهيروغلفية، وتمت إضافة سبعة أحرف فقط من الخطِّ الديموطيقي لم تكن موجودة في اللُّغة اليونانية، حيثُ كانت الديموطيقية هي المرحلة قبل الأخيرة قبل اللُّغة القِبطيّة .

وما زالت تستخدم في الصَّلوات الكنسيَّة حتَّى الآن معَ بعض الكلمات من اللُّغة اليونانية بجانب اللُّغة العربيَّة بالطَّبع، لا لشيء سوى أن هذه الصَّلوات كانت تُتلى بهذه اللُّغة معَ كون الألحان الكنسيَّة أيضًا وُضِعَت بها، وهي بالمناسبة لُغة بسيطة ويسهل حفظ مُفرداتها؛ لذَلِكَ لا يجدُ الأقباط صعوبةً في استخدامها في القُدَّاسات في أجزاء منه، حيث إن أغلب القُدَّاس يكون باللُّغة العربيَّة، ولا يشترط استخدامها في الصَّلوات الفرديَّة.

ولا نزال كلنا كمِصريين نستخدمُ مُفردات كثيرة منها مثل:
تِرمِس - حَنْطُور - حَنَفِيَّة - دَحْ (تقال للأطفال بمعنى ضار) - زِبْدَة - زِير - زُغُطَّة - زُكَام - زيح (إبعاد شيء عن مكانه) - سُكْ (سُك الباب) - سِمْسِم - سِمِيط - سَمْكَري - سَنْدَرَة - شِبْشِب - طِينَة - فَاس – مِنْجَل - قَشّ - تَبُوت - فَلافِل - فُوطَة - قُوطَة - قُلْقَاس - كَاني ومَاني (عَسَل وسَمْن) - كَخ (سُعَال) - كَحْك - بِخ (معناها شيطان) - كُرُنب - مَاسِخ - مِشْط - هَمْ (تقال للأطفال ومعناها كُلْ) - هِيلا هُوب (هوب تعني عمل وهيلا للتشجيع) - سَعْفَة (من النخيل) - واوا (الجرح والألم) - وَزد - يا (أداة تخيير يا ده يا ده) - ياما (كثير) - باش (لَانّ أو طري) - كَوَش (أي أخذ لنفسه كل شيء) - حاتا باتا

(أي لحم وعظم، نِزِل على الأكلِ حَتَتَكْ بَتَتَكْ أي لم يترك منه لحمًا أو عظمًا) - ليلي يا عيني (أي افرحي يا عيني) - بِصَارَة - بُعْبُع (عفْرِيت) - بَخْبَخ (وَسَّع) - وِيبَة (مِقْياس للحبوب) - وَاح (واحة أي مكان منخفض) - وَارِب (وَارَب الباب، ومنها أوْرِب أي أَغْرُب ويلاحظ التَّشابه اللفظي).

والأبجدية القبطية هي:

Ⲁ	Ⲃ	Ⲅ	Ⲇ	Ⲉ	Ϛ	Ⲍ	Ⲏ	: كبير
ⲁ	ⲃ	ⲅ	ⲇ	ⲉ	ϛ	ⲍ	ⲏ	: صغير
a	v, b	g,gh,n	dh,d	e	-	z	ee	
آ	ب-ف	ن-غ-ج	دذ	إ	-	ز	إ	: النطق
alpha	*beta*	*ghama*	*dhelta*	*ey*	*so*	*zita*	*ita*	
ألفا	بيتا	غما	دلتا	إي	سو	زيتا	إيتا	: الاسم

Ⲑ	Ⲓ	Ⲕ	Ⲗ	Ⲙ	Ⲛ	Ⲝ	Ⲟ	: كبير
ⲑ	ⲓ	ⲕ	ⲗ	ⲙ	ⲛ	ⲝ	ⲟ	: صغير
th,t	i, y	k	l	m	n	x	o	
ث-ت	ى-إ	ك	ل	م	ن	كس	أو	: النطق
theta	*yota*	*kappa*	*lola*	*mey*	*ney*	*xy*	*o*	
ثيتا	يوتا	كابا	لولا	مي	ني	إكسي	أو	: الاسم

Ⲡ	Ⲣ	Ⲥ	Ⲧ	Ⲩ	Ⲫ	Ⲭ	Ⲯ	: كبير
ⲡ	ⲣ	ⲥ	ⲧ	ⲩ	ⲫ	ⲭ	ⲯ	: صغير
p	r	s	t	v,ou,i	f	k,sh,kh	ps	
ب	ر	س	ت	إ-أو-ف	ف	ك-ش-خ	بس	: النطق
pi	*ro*	*sima*	*tav*	*ipsolon*	*fey*	*key*	*psi*	
بي	رو	سيما	تاف	إبسلن	في	كي	إبسي	: الاسم

Ⲱ	Ϣ	Ϥ	Ϧ	Ϩ	Ϫ	Ϭ	Ϯ	: كبير
ⲱ	ϣ	ϥ	ϧ	ϩ	ϫ	ϭ	ϯ	: صغير
oa	sh	f	kh	h	j,g	ch	tee	
أو	ش	ف	خ	هـ	ج-چ	تش	تي	: النطق
omega	*shai*	*fai*	*khai*	*hori*	*janja*	*chima*	*tee*	
أوميجا	شاي	فاي	خاي	هوري	جنجا	تشيما	تي	: الاسم

الصورة من موقع .www.avarewase.org

هامِشٌ للتَّواصُل

١- شمعي أسعد:
shamei.eng@gmail.com

تليفون: 01222637562
Facebook: Shamei Asaad

٢- مُدوَّنة قصاقيص ورق:
http://kasakiswarak.blogspot.com

الفهـــرس

صديقنا قارئ هذا الكتاب

قبل أن تغلق الكتاب دعنا نتفق على عدة أشياء، واثقون من أنها سترضيك.. دعنا نتفق على أن القراءة درّة أنعم الله بها علينا، ووهبنا إياها، تلك اللذة المميزة -والتي لم يمنحها للبعض- وهي لذة الاستمتاع بالقراءة.. نحن نقرأ ونتعلم، نقرأ ونُخَبَّر حكايات الآخرين، نقرأ ونختصر خبرات العالم في بضع صفحات.. نقرأ ونتلق، نقرأ ونختلف، نقرأ ونقرأ ونقرأ... لكن الأكيد! أننا نقرأ ونستمتع..

لذلك،،،

لا تدع تلك اللذّة النادرة تقف عندك، لا تدع هذا الكتاب يتوقّف بين يديك - بعد الانتهاء منه- فهناك الكثيرون ممن لم يقرؤوه، أو لا يمتلكون ثمنه، أو من لم يسمعوا عن هذا الكتاب.. خبّرهم عن تلك اللذة الشيقة، والمتعة النادرة التي لا يعلمونها.
مرِّر هذا الكتاب إلى أهل بيتك، صديقك، جارك، زميلك في العمل، أو حتى شخص ما في المواصلات العامة لم تره من قبل !!

كن سبيلا في إسعاد الآخرين بهذا الكتاب، ولا تتعجّب عندما تجد كتاباً لم تقرأه من قبل يأتيك من أحدهم وهو يخبرك بدوره عن متعة القراءة بعد ذلك بحين من الزمن.

دَارُ دَوِّنْ

حَارة النَصارى

هذا كتاب ستكرهه جداً أو تحبّه جداً، لكنك أبداً لن تقف منه موقف المحايد.. إنها قصّة سِرّية تنمو في نفس شاب مصري مسيحي الديانة.. وهي أيضاً حكاية متجدّدة لمن يرى بعينيه على أرض الواقع الحقيقي غير ما يسمع بأذنيه من وسائل الإعلام الحكومي.. إنها المفارقة التي ستدمي قلب ذلك الشاب دائماً، أو ستجعله صلباً للأبد.. إنه قرار الانضمام للقطيع في صمت متواصل، أو الاختلاف في ضجيج مستمر.. لذا فإننا في هذه المرة، وعبر هذا الكتاب، سننضمُّ إلى معسكره؛ لنرى بعينيه ونسمع بأذنيه حكاية وطن يتقلّص وينكمش - من وجهة نظره- ليصبح مجرّد حارة ينزوي فيها النص
وطناً يفخرون بالانتماء إليه.. إنها قصّة شاب مصري مس

تصميم الغلاف احمد مراد

